الوجهة الأولى

وتحتوى على عشر صور فى تعريف الأحوال الجغرافية لمدينة طيبة مهجر النبى ﷺ وتورد عادات أهلها.

فى ذكر الأحوال الجغرافية للمدينة الميمونة والبلدة الطاهرة وأوضاع أسوارها الجديدة والقديمة: طرزها وهيئاتها ومتانتها.

المدينة المنورة على صاحبها الصلاة والتحية من الممالك المعمورة والبلاد المنتظمة، الثانية فى البلاد الحجازية، ولا يوجد بلد يشبهها من حيث المياه الجارية والرياض المتعددة والأبنية المنتظمة المزينة.

لم يهتم بها فى الزمن الجاهلى، كما ظلت فى صدر الإسلام لفترة طويلة فى حالة خراب، ولكن كلما تقدمت العصور الإسلامية وتجددت وترفت، أنفق السلاطين العظام أموالا زاخرة وبذلوا المساعى الجمة حتى أصبحت مدينة جديرة بمهجر سيد الأنبياء ـ عليه وعليهم التحايا ـ وذاع صيتها بذلك.

إن المدينة المذكورة والبلدة الطيبة المباركة تقع فوق واد مسطح مرتفع بين درجة ٢٥، ٢٠ دقيقة فى الشمال عرضا وبين درجة ٣٧، ٣ دقائق فى الشرق طولاً، ويحدها من الشمال جبل أحد ومن الشرق جبل الطبرى.

يروى أن عدد سكان المدينة المنورة وضواحيها يبلغ ثلاثين ألف نسمة إلا أنه لم يبق من ذرية الصحابة الكرام اليوم على أصح الروايات إلا رجل وبضع إناث، أما الباقون فقد أتى أجدادهم مجاورين واستوطنوا فى المدينة. لأن حجاج المسلمين يريدون أن ينالوا الأسرار الجليلة التى صدرت فى شفاعة النبى ﷺ فى حديثه: «ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة»[1] (حديث شريف) ويقبلون على زيارة «الروضة المطهرة» قبلة العاشقين والمتضرعين والمتوسلين بغية

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد، باب فيما بين القبر والمنبر: ٤/٨ - ٩. عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى، وعزاهما لأحمد بإسناد صحيح. إلا أنه قال: ما بين بيتى ومنبرى..»، وعزاه لأحمد وأبو يعلى والبزار عن جابر بن عبد الله، وعزاه أيضًا للطبرانى عن ابن عمر، ورجاله ثقات.

نيل الشفاعة الموعودة ويدخلون فى «الحجرة المعطرة» حيث يحلو لبعضهم أن يظلوا مجاورين لهذه الأماكن المباركة. وقد بلغ عدد هؤلاء أو الذين تركوا ديارهم مع أولادهم وعيالهم محتاجين الإقامة مجاورين الرسول محبة فيه، بلغ عدد هؤلاء اليوم ألفين أو ثلاثة آلاف شخص[1]. وأولاد المجاورين الذين ولدوا وعاشوا فى المدينة الطاهرة، يعدون من أهل البلدة الطيبة، وبهذا يكون أغلب سكان المدينة من ذرية أسلاف المجاورين الذين تكاثروا جيلا بعد جيل وكونوا جماعة كبيرة واشتهر بعضهم بأولاد «برى» كما اشتهر بعضهم بأولاد السمهودى كما اشتهر الآخرون بأسماء أخرى.

إن الذوات الذين عرفوا باسم أولاد «برى» أصلهم من الغرب، وأبناء السمهودى من البلاد المصرية المجاورة، والآخرون ينتمى كل واحد منهم إلى بلد ما. تقع هذه البلدة السعيدة فى الجهة الشمالية الغربية من مكة المكرمة وعلى بعد أربعمائة كيلو متر منها، وعلى بعد مائة كيلو متر من الجانب الشرقى من البحر الأحمر وفى نهاية صحراء عظيمة، وطريقها البرى الواصل إلى مكة المعظمة عبارة عن صحراء رملية وجبال صخرية ووديان قابلة للزراعة.

وهى محاطة بسور على شكل قطع ناقصة وجميلة من جهاتها الأربعة، والجهات الأربعة لهذا السور محاطة بجبال متسلسلة ومحددة، وفى جهتها التى تهب منها رياح السموم قطعة واحدة من صخرة نصبت حولها قلعة قديمة ولكنها متينة تعرف بقلعة «أروج حصار».

وطول هذا السور «١٤٠٠٠ ذراع» تخمينا وارتفاعه عشرون ذراعا وسمكه عشرة أذرع، وأحجاره فى غاية الصلابة والمتانة، وله خمسة أبواب اشتهرت بأسماء: درب المصلى، درب الصغير، درب الشامى، درب السوارقية، درب البقيع.

درب المصلى: ويطلق عليه درب السويقة وباب السوق وباب المصر، وقد كتب

(١) فى زمن المؤلف.

فوق طاقته ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٣٠) وقد طرحت مبانيه وأسست من حجر أسود فى غاية الإحكام إلا أن بعض أماكنها أخذت تتشقق والباب المذكور فى الجهة الغربية من السور وفى جهة «مصلى عيد النبى» وما بينه وبين باب السلام «ستمائة خمسة وأربعون» ذراعا.

الدرب الصغير: ويقع بالقرب من حصن الأمير وفى جهة درب المصلى.

الدرب الشامى: ويطلق عليه الدرب الكبير أيضا.

درب البقيع: هو الباب الكبير الذى يقع فى الجهة الشرقية من السور، وهو الباب الذى يعرف بباب الجمعة، وبينه وبين باب جبريل مسافة أربعمائة ثلاثة وثلاثون ذراعا.

إخطار

الذراع الذى أذكره فى تعريف هذا السور هو الذراع المعمارى، ولكن فى قياس الحجرة المعطرة أو ساحة مسجد السعادة، اعتبر الذراع الذى يستخدم فى البلاد المصرية والحجازية، وعلى هذا يلزم أن يكون هذا المقياس مقياسا فى طول شبرين، لأن الذراع الآدمى ومقياس مصر والحجاز ذراع وثلث ذراع.

درب البقيع: ظل هذا الباب مسدودا إلى سنة خمس وسبعين وسبعمائة، وقام الملك الصالح المصرى بفتح هذا الباب فى خلال تلك السنة وأدخل السرور فى قلوب سكان هذه الجهة، ولكنه سده مرة أخرى بعد فترة، واندرس أساسه وانمحى شكله وبهذا أصبح عدد أبواب أسوار المدينة أربعة. ولما وفق والد السلطان كثير المحامد فى تجديد مسجد السعادة أمر بفتح الباب الشامى لتسهيل نقل أنقاض مبانى مسجد السعادة عند تجديده وبهذا أصبحت أبواب المدينة المنورة خمسة أبواب مرة أخرى.

إن الأبواب الخمسة أكثر الأبنية نظاما بالقياس للمبانى الموجودة فى البلاد

الحجازية، وكل واحد منها قد أسس وفتح تحت أبراج منقوشة بألوان متنوعة ومستحكمة بنيت لصد هجمات عربان البوادى، ويبعد كل واحد عن الآخر مسافة مَنزل رصاص وبنيت مطابقة لفن وقواعد بناء القلاع والحصون على شكل نصف دائرى، وصنع فوق جدران الأسوار بعض الأبراج وزرعت فى داخل المدينة وخارجها أشجار نخيل لا تعد ولا تحصى وذلك بمساعدة وفرة المياه وجودة الهواء.

ولم يكن فى عصر السعادة أسوار ولا مستحكمات، وكانت دور أجداد الأنصار من قبائل «الأوس والخزرج» متصلة بعضها ببعض مثل قرى متسلسلة، لذا كان شكل المدينة الطاهرة بلدة طولية جسيمة وقد وصل أحد أطرافها إلى قرية «قباء» التى تثير الشوق إليها. وقد دام عمارها الذى حدث فى عصر النبى ﷺ إلى واقعة الحرّة الشهيرة، وبعد ذلك آلت إلى الخراب تدريجيا، وبما أنها قد صغرت إلى أقصى حد فى عهد طائع الله بن المطيع لله العباسى، فقد أخذ العربان الذين يسكنون الصحراء يثورون من حين لآخر ويطوفون ويمضون ثم يغيرون على المدينة وينهبون أموال الأهالى ويستولون على كل ما يمتلكون، فأراد عضد الدولة[1] ابن بويه أن يحمى سكان دار السكينة وأموالهم من نهب أشقياء البدو وأن يخلصهم من تسلطهم، فأحاط تلك المدينة بسور متين فى سنة «٣٦٠هـ»[2]، ودام السور الذى بناه عضد الدولة وأسسه ما يقرب من مائتى عام، إلا أنه لم يعمر ولم يصلح ولم يرمم لفترة طويلة فآلت أبراجه وجدرانه بالتدريج إلى الخراب واندرس حتى لم يبق أثر لأسسه، وأخذ العربان الذين لا يذعنون فى إزعاج الأهالى، لذا بنى صاحب رباط العجم[3] «جمال الدين محمد بن أبى منصور» الأصفهانى سورا جديدا قويا فوق أنقاض السور القديم المندرس، وبهذا

(١) كان هذا الشخص وزير «طايع الله أبو شجاع ركن الدولة» ومن آثاره الخيرية سوق شيراز الذى يطلق عليه «سوق الأمير» ودار شفاء بغداد، وأضرحة الإمام على والإمام الحسين «رضى الله عنهما» فى النجف بكربلاء.

(٢) يروى البعض أن السور المذكور قد طرح فى سنة «٣٦٣هـ».

(٣) قد عرف موقع هذا الرباط فى الصورة الأولى من الوجهة الثانية عشرة.

أنقذ الأهالى الضعاف من شقاوة الأشقياء وذلك فى سنة ٤٥٠هـ مع أن هناك روايات مختلفة كثيرة يتناقلها الناس بخصوص القلعة القديمة التى قام بتجديدها المرحوم جمال الدين فمن المحقق أن تلك القلعة هى التى جددها جمال الدين المذكور إذ قال شهاب الدين ابن أبى شامة فى كتابه نقلا عن ابن الأثير:

بينما كان ابن الأثير يؤدى صلاة الجمعة فى مسجد المدينة المنورة، رأى أن أحد الأشخاص يطيل فى الدعاء لجمال الدين الأصفهانى فسأله عن سبب ذلك؟

فكان رد الرجل: إن أهل دار السكينة يدينون فى كل وقت وآن وساعة بالدعاء لجمال الدين؛ وكيف لا يدعون له؟! أليس هو الذى أنقذ سكان مدينة الرسول من إساءة العربان ومضرة أهل العدوان، إذْ أحاط المدينة بالسور الذى تراه وكانوا قبل ذلك أسرى فى أيادى العربان وكان أشقياء العرب يهاجمونهم فى كل آن وينهبون أموالهم ويغتصبون حيواناتهم ويغيرون عليهم. ولسنا وحدنا نخصه بالدعاء حتى خطباء منبر السعادة يقولون فى أثناء خطبهم اللهم صن حريم من صان حريم نبيك بالسور، محمد بن على بن أبى منصور، فرحمه الله ورضى الله عنه.

إن رواية ابن أبى شامة هذه تؤيد القول الذى يحكى أن بانى هذا السور ومجدده هو جمال الدين محمد بن أبى منصور.

ويجرح ابن خلكان القول الذى يقول إن هذا السور قد بنى من قبل عضد الدولة قائلاً إن «إسحاق بن محمد الجعدى» هو الذى كان قد بنى سور المدينة القديم فى خلال سنة مائتين وثلاث وستين، وكان للسور الذى بناه إسحاق بن محمد أربعة أبواب فى ذلك الوقت يفتح أحدها إلى جهة مقبرة بقيع الغرقد والثانى إلى عضد الدولة وادى العقيق والثالث إلى قبور الشهداء والرابع يفتح إلى جهة الغرب؛ وقد خرب هذا السور الذى بناه إسحاق بن محمد، وهذا هو سبب نسبة السور القديم إلى عضد الدولة ابن بويه وحكم بهذا المقال أن السور القديم من آثار إسحاق بن محمد وبعض المؤرخين يؤيدون هذه الرواية أيضًا

قائلين إن الذى بنى السور القديم هو معز الدولة، وجدده فى سنة أربعمائة وخمسين صاحب رباط عجم جمال الدين الأصفهانى، وإن تمسك المؤرخون بادعائهم هذا إلا أن الرواة الذين نقلوا خبر ابن بويه من الأشخاص الذين يوثق فى أقوالهم وهذا يقتضى ترجيح هذه الرواية على الروايات الأخرى.

والمؤرخون الذين رأوا آثار خرائب السور القديم الذى بناه عضد الدولة ذهبوا إلى أن هذا السور يمتد من جبل سلع إلى وادى بطحان يحتوى فى داخله ما نسميه فى زماننا «بمسجد النبى» والذى كان مصلى العيد المصطفوى، ومبانيه وما حوله من جميع البيوت وبهذا ادعوا أن السور القديم كان سورًا عظيمًا.

وبعد أن جدد المرحوم جمال الدين سور المدينة وأنقذ الأهالى من أن يداسوا تحت سنابك خيول العربان وخلصهم من شرورهم، أخذ سكان مدينة الرسول يزيدون يومًا بعد يوم وبناء على هذا أصبح لازمًا بناء البيوت خارج السور وامتلك فقراء الناس قطعان من الأرض فى خارج السور وأخذ كل واحد منهم يبنى بيتًا على قدر طاقته، إلا أن أشقياء العربان الخبثاء أخذوا يزعجون فقراء السكان فى خارج السور كلما وجدوا فرصة نتيجة لما جبلوا عليه من الخسة إلى أن ورد إلى المدينة الشهيد «نور الدين» وقد ذهب الشهيد نور الدين بغتة إلى المدينة الزاخرة بالرحمة بناء على رؤيا رآها ـ كما ذكر فى الوجهة التاسعة والصورة الأولى ـ وانتهز أصحاب البيوت التى فى خارج السور الفرصة وقدموا طلبًا يفيد لجملة ما يأتى: يا أيها الملك! لم تبق لنا طاقة لتحمل غارات أشقياء العربان، إذ يغيرون علينا من حين لآخر ويستولون على حيواناتنا ويأسرون أولادنا وعيالنا، نرجو أن تنقذنا من شرور هؤلاء بأن تصدروا أمركم ببناء سور يحيط بمنازلنا، وما كان من الملك إلا أن أسعف رجاء الأهالى وأمر بهدم السور القديم الذى آل للسقوط والخراب وأسس سورًا جديدًا يحيط بالمنازل والمحال التى بنيت فيما بعد وما زال هذا السور مشهورًا إلى يومنا هذا، وهكذا أنقذ أصحاب المحلات الجديدة والبيوت من تسلط عربان الصحراء وإضرارهم وذلك فى سنة «٥٥٨».

وقد رأى فريق من المؤرخين فوق الباب الذى فتح فى جهة بقيع الغرقد من السور عبارة: «هذا ما أمر بعمله العبد الفقير إلى الله تعالى محمود بن زنكى بن أقسنقر غفر الله له، سنة ثمان وخمسين وخمسمائة» وذهبوا إلى أن السور المذكور قد شيد من قبل محمود بن زنكى. ومن هنا لا شبهة فى أن السور المذكور من أثر بناء الشهيد نور الدين.

والشهيد نور الدين هو «محمد القاسم» ابن الملك المنصور عماد الدين بن أبى الجواد، زنكى أقسنقر.

وقد ولد فى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ورحل عن دنيانا سنة تسع وستين وخمسمائة إلى عالم البقاء والخلود وبناء على هذا يكون قد مات وعمره أربع وخمسون سنة رحمه الله.

وقد أمن سور المدينة الطيبة الذى بناه الشهيد نور الدين السكان من تسلط العربان، وحافظ عليهم ما يقرب من مائة وخمسين عامًا، إلا أن تقلبات الزمان ومرور الأيام خربت السور الجديد وحفرة الخندق التى حفرت من قبل سعد بن ثابت وأخذت هجمات الأشقياء المتوالية تزعج سكنة دار الهجرة مرة أخرى، وعندئذ جدد الملك الصالح ابن الناصر قلاوون وهو من الملوك الشراكسة المصريين الأماكن الخربة من ذلك السور فى سنة ٧٥٥، كما شيد وأصلح السلطان قايتباى الأماكن التى خربت وانهدمت من ذلك السور.

شرع فى حفر الخندق سالف الذكر، بتشجيع سعد بن ثابت جماز من ولاة المدينة واتفاق الأهالى واتحاد الأعيان والسادات فى سنة ٧٥١ هجرية، إلا إنه تم حفره فى عهد وولاية فضل بن جماز الذى أصبح واليًا بعد موت سعد بن ثابت. وللأسف الشديد قد امتلأ ذلك الخندق بالأحجار الصغيرة نتيجة للإهمال وأصبح أرضًا مستوية حيث أنبتت بعض الخضر والفواكه.

وكما لم تجدد أى جهة من جهات السور منذ عصر الملك قايتباى المصرى إلى عصر السلطان سليمان بن السلطان سليم خان عليهما الرحمة والغفران، أخذت

أبراجه وجدرانه تتشقق وتنهار فانفتحت شقوق كبيرة وأخذ البدو يمارسون عاداتهم القديمة المألوفة فيمدون أياديهم إلى أموال الأهالى والمواشى وأخذوا يزعجون سكنة دار السكينة، مما دفع الأهالى إلى عرض أحوالهم على أعتاب السلطان سليمان وإعلامها فى سنة ٩٣٧ هجرية، فصدر الأمر السلطانى بتعمير سور المدينة القديم بشكل متين قوى وإنقاذ الأهالى الكرام من تسلط اللصوص، وتعيين من يقتضى تعيينهم من أجل هذا العمل على وجه السرعة وإرسالهم إلى دار الهجرة، وإشعار ذلك إلى والى ولاية مصر، وبناء على صدور الصحيفة التى تحوى الأمر السلطانى وإرسالها إلى والى مصر، تم تدبير الشخص الذى أنيطت به مهمة أمانة البناء كما دبرت المبالغ اللازمة، وتوجه مستصحبًا معه لوازم البناء إلى المدينة المنورة وتحرك من مصر لينال هذا الشرف وعندما وصل إلى دار الهجرة أخذ يقيس الأماكن التى تحتاج إلى التعمير والبناء من السور فتكشف له أن أربعة آلاف ذراع معمارى من الجدران فى حاجة إلى التأسيس والتشييد من جديد ماعدا الأبراج والدعائم، وكان ارتفاع هذا الجدار سبعة عشر ذراعًا وسمكه عشرة أذرع، وقد جلب أمين البناء العمال المطلوبين من المدينة المنورة، وابتدئ فى حفر الأساس فى أواسط سنة ٩٣٩. وقد بذل أقصى الجهود وأخلص المساعى فى بناء السور وقدمت التسهيلات اللازمة من جميع الجهات ومع ذلك لم يتم بناؤه. إلا فى ظرف سبع سنوات واكتمل فى أواخر سنة ٩٤٦ وفتحت للسور الخارجى أربعة أبواب وللسور الداخلى الذى يطلق عليه «القلعة الداخلية» بابان.

وكان أحد أبواب «القلعة الداخلية» مفتوحًا أو مغلقًا على صورة دائمة بينما كان الآخر قد صمم على أن يفتح ويغلق فى وقت الحاجة فقط لذلك أطلق عليه «الباب السرى».

وقد غطيت مصاريع أبواب القلعة الخارجية والداخلية بألواح حديدية بينما صُنِعَ «الباب السرى» من الحديد الخالص وقد رممت بروج القلعة الخارجية أكثر من بروج القلعة الداخلية، وعمقت حفرة الخندق وشيدت جدرانها قوية متينة على قدر الإمكان، وأجرى مقدار كاف من المياه من «عين الزرقاء» حتى لا يحرم

الأهالى فى داخل السور من المياه وفتح منهلان أحدهما خاص بالرجال والآخر بالنساء.

قال صاحب «مفتاح السعادة» أنفق السلطان سليمان لتجديد السور ستين ألف قطعة ذهبية وقال «السيد كبريت المدنى» أنفق مائة ألف قطعة ذهبية. وأرسل أربعة عشر ألف أردب من الحبوب مثل الأرز والحنطة والفول والشعير، وما لا يحصى ويعد من العدد والأدوات وكان ما أرسل من الآلات والحبوب والأدوات خارج الحساب المذكور.

ولم تنفق كل هذه النقود فى تعمير السور فقط بل أنفقت أيضًا ـ كما سبق فى بحث تعمير الحرم النبوى وتفضيله ـ فى تقويض الجدار الغربى للمسجد النبوى ومئذنة «الشكلية» و«باب الرحمة» كلها من أساسها وتجديدها فيلزم أن تدخل النقود التى ذكرها صاحب كتاب مفتاح السعادة و «السيد كبريت». والبيت المذكور الذى يقول.

(أنظر إلى السلطان سليمان لقد بنى قلعة كسد الاسكندر فاطلب له الرحمة).

يؤكد أن السلطان سليمان ـ عليه رحمة الله المنان ـ هو الذى قام بتجديد سور المدينة المنورة، وصان أهلها من تسلط العربان، وهكذا يئس أشقياء العرب من التسلط على المدينة ونهب أموال الأهالى ومواشيهم ـ رحمه الله رحمة واسعة.

وبخصوص القلعة فإنه من المعلومات التى ذكرت هاهنا، يفهم أن المدينة المنورة كان لها سوران: الأول غربى والثانى شرقى وكانت حدود المدينة المذكورة محاطة بهذين السورين.

وكل من يسكن بين أحد السورين يطلق عليه مدنيًا، وقد جدد السور الغربى بالطوب اللبن فى أوائل الفترة الوهابية من قبل الأهالى على أسس السور القديم.

وجوب مراعاة حق جيران رسول الله ﷺ.

وقد قال سلطان الكائنات وهو يبين توصية جبريل خيراً بأهل المدينة. «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[1] (حديث شريف). وبناء على هذا يجب أن يخشى قول كلمات غير لائقة فى حق جيران رسول الله، وقد بين الرسول ﷺ وجوب شفاعته للشخص المدنى الذى يظل على إيمانه ويسلم روحه على تلك الحالة فى حديث روى عن الإمام الترمذى وابن ماجة والذى رواه ابن حبان عن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت بها فإنى أشفع لمن يموت بها»[2] ومن أجل هذا فمن واجب العباد الموحدين أن يحبوا أهل المدينة الميمونة وأن يظهروا لهم حيثما قابلوهم مظاهر التعظيم والتكريم. إن مراعاة جانب أهل المدينة كأنها توقير وتعظيم لسلطان الأنبياء ـ عليه أفضل التحايا ـ ولأجل نيل رضا النبى ﷺ قد أبدى «ملوك الأمويين والعباسيين والأيوبيين والشراكسة» أعظم توقير للحرمين الشريفين ورعوا جانب سكانها أعظم رعاية، وبناء على ما سوف يعرف فى الصور الآتية قد تركوا آثاراً خيرية كثيرة ستخلد أسماءهم فى صحيفة العالم.

وقد فاق السلاطين العثمانيون الملوك السابقين فى هذا الصدد إذ خصصوا لأهالى الحرمين ومجاوريهما جرايات مستوفية وتعيينات من الأشوان والمخازن المحلية، والمعاشات من وزارتى المالية والأوقاف وأنعموا عليهم بالصرر والهدايا وعملوا على تأمين راحتهم وإنقاذهم من غارات أشقياء العربان وأحيوا الآثار المسعودة بالتعمير والتجديد. ونذكر خاصة السلطان عبد المجيد خان ـ طيب الله

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب حديث رقم (٦٠١٤، ٦٠١٥) فتح البارى (١٠/ ٤٤١) ومسلم فى كتاب البر والصلة حديث رقم (١٤/ ٢٦٢٤، ١٤١/ ٢٦٢٥ ص (٢٠٢٥) ط. عبد الباقى، باب الوصية بالجار.

(٢) صححه الترمذى والدار قطنى فى العلل الكبير بما يطول ذكره. انظر: إعلام الساجد، ص ٢٤٨، ٢٤٩.

ثراه ـ كان المسجد النبوى قد أشرف على الخراب فى زمنه. كما بين ذلك فى الصورة الخاصة ـ فأمر السلطان بهدمه من أساسه وبنائه رصينًا متينًا محافظًا على زينته الخارجية. وقد شرع فى بناء المسجد بناء على رغبة السلطان وتم إنشاؤه فى ظرف اثنى عشر عاما، ولا شبهة أن السلطان المذكور قد أبهج روح رسول الله ﷺ بهذه الخدمة المفتخرة وبإظهار الحرمة والتوقير بسكنة الحرمين الشريفين الكرام.

وبما أن الرسول ﷺ العارف العالم برموز الحكم قد بين لزوم محبة أهل المدينة جيرانه بأحاديث كثيرة، فيجب عرض المحبة والمودة لأهل المدينة. ومن علامات العبودية الخاصة حُبُّ من يحبه الرسول ﷺ والابتعاد عمن لا يحبه. ومع كل هذا فمهما أظهر لسكان أهل المدينة من المحبة والوداد والأخوة، فلا يمكن مقابلة ما نراه فيهم من الرعاية والاحترام. والخدمة التى نقدمها لهم، هى إرسال صرة لهم مرة فى السنة مع أنهم يدعون لنا فى صلواتهم الخمسة أمام النبى ﷺ، وإنهم يلاطفون زوار رسول الله ﷺ غاية الملاطفة، وحيثما رأوهم يستفسرون عن أحوالهم ويحاولون إظهار أية خدمة لهم. وإنهم يخجلون من الواحد منهم الذى يخلو بيته من ضيوف فى مواسم الحج ويوبخونه قائلين معاتبين: «لو كنت رجلاً سعيدًا مستقيم الأطوار لبحثت عن ضيف وأطعمته» ومن عاداتهم أن يستقبلوا قوافل الحجاج فى ناحية جرف[1] وأن يظهر أطفالهم فرحهم وسرورهم بقدوم الزوار بإنشاد

سيد خواجه ياكل دجاجة

فى صحن صينى أنت سليمى

وإنهم يسارعون فى استضافة كل من يقابلونه من الزوار سواء أكان فى موسم الحج أو غيره بدعوته إلى منازلهم، وكلهم رجالهم ونساءهم ويطيب خواطر الضيوف، وإذا لم يكن عندهم قدرة لاستضافة من يدعونهم إلى دورهم

(١) جرف تبعد عن المدينة مسافة ساعتين.

يستدينون ليقوموا بواجب الضيافة، وإذا قورن ما يقدمه الزوار من النقود والهدايا بما يقدمه أهل المدينة من الرعاية فلا يساوى ما يقدمونه عشر معشار ما يرونه من حسن الرعاية وما يقدم لهم من الضيافة.

قد أقمت أنا مؤلف الكتاب فى سنة ١٢٨٩هـ فى الدار السعيدة دار ابن نقيب الأشراف، من السادات العلوية محمد علوى بافقى أفندى.

وكان معى تسعة من رفقائى، وكان سيد أفندى يحضر لنا فى اليوم مائدتين من الطعام كاملتين، وكان أصدقائى يتحدثون فى أثناء الطعام ويخوضون فى الحديث عن قيمة ما يقدم لهم قائلين إن مثل هذه المائدة يمكن تجهيزها بقطعة ذهبية. يعنى بمائة واثنين وثلاثين قرشًا. ولم يفارقنا سيد أفندى لحظة واحدة فى أثناء إقامتنا عنده، كما أنه لم يترك أثرًا فى المدينة لم يأخذنا إليه، وإذا انتقل بنا الكلام إلى السيدة والدته فمن العادات المرعية بين نساء المدينة أن تقوم أكبر السيدات سنًا بالطبخ، وألا يُدْخَلَ المطبخ دون وضوء. فالسيدة المذكورة لم تغادر المطبخ مدة إقامتنا تاركة النوم والراحة.

ويقتضى الوقوف على دقائق الأحوال فى المدينة وأسرارها، الإقامة فى المدينة فترة ما والاختلاط والائتلاف بوضيعها وشريفها، لذا لا يستطيع أن يعرف دقائق الأمور فى المدينة من يقيم بها يومين أو ثلاثة أيام.

البيت:

فيمحوك الله فى لحظة مثل الرماد

لا تطل يدك ولا لسانك لأهل تلك البلدة

فى ذكر وبيان كيفية دفن من أدركه الأجل فى المدينة الطاهرة.

فى مقابر البقيع، يصلون الصلاة التى حان وقتها ثم يصلون صلاة الجنازة ويخرجون الجنازة من باب جبريل وينقلونها بالتهليل والتوحيد إلى مقبرة البقيع حيث يدفنونها.

وإذا ما وجدت فى المسجد النبوى عدة جنازات سواء أكانت للرجال أو النساء، تصلى عليها فى جماعة واحدة ويصافحون أقارب الميت معزين، وهذه العادة سنة طيبة بقيت بعد وفاة سيدنا «الحسن بن على» رضى الله عنهما، لأن أخاه الحسين وقف بجانب باب مقبرة البقيع بعد دفن الحسن بعد وفاته وتقبل تعازى الناس بكل احترام.

ولما كان غسل الموتى من غير رخصة ممنوعًا منعًا باتًا وقد وضعت هذه القاعدة لمعرفة عدد الذين يموتون فى السنة بالمدينة المنورة، لذا تعطى من المحكمة للوفيات قطعة من تذكرة يطلق عليها «إجازة» ولا توجد فى المدينة الطاهرة مقابر متعددة، ومهما يكن المتوفون ينتسبون إلى أسر كبيرة فلابد أن يدفنوا فى مقبرة «بقيع الغرقد».

ومقبرة بقيع الغرقد ـ كما عُرِّفَتْ فى الصورة الثامنة من الوجهة الثالثة ـ خارج السور الذى ينسب إلى جمال الدين الأصفهانى وأمام باب الجمعة، لذا تخرج الجنائز من باب جبريل وتحمل عن طريق «باب الجمعة» إلى بقيع الغرقد ومقبرة بقيع الغرقد محاطة بسور وجدار فى ارتفاع ثلاثة أذرع ولها خمسة أبواب وفى داخلها أحد عشر ضريحًا.

ولما كانت تلك المقبرة الشريفة من أكثر المقابر بركة، فقد دفن فيها الذين

صعدوا إلى عليين وسكنوا قصور الخلد من بنات وأزواج النبى الطاهرات وأكثر أصحاب رسول الله ﷺ المهتدين وعطروا ترابها، ودفن فيها جميع الذين توفوا فى المدينة منذ عصر السعادة، وقد ثبت بناء على أصح الروايات دفن سبعة آلاف من الصحابة بقطع النظر عن التابعين وأتباع التابعين من الصلحاء والأتقياء.

فالجنائز التى تدفن فى مقبرة البقيع الشريف توضع فى لحد يسمى «قصقية» ولكل قصقية باب مستقل. وبناء على إخبار من اطلع على الأمور، أن لو فتحت قصقية الجنازة التى دفنت اليوم غدا لدفن جنازة أخرى فلا يبقى أثر من عظام الجنازة الأولى ولا تشم لها رائحة عفونة، وذلك من حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهذه الحالة تصدق مآل الحديث النبوى ﷺ: «كأنهم ينثرون أهل البقيع مثل الورد فى رياض الجنان» (حديث شريف).

ليس فى المدينة تابوت خاص فالميت سواء أكان من الرجال أو النساء يدفن بكفنه، وتغلق أبواب وفتحات اللحود الجديدة التى صنعت من أجل الجنازة باللبن والتراب بعد الدفن.

والذين يتوفون فى المدينة المنورة ويدفنون فيها ينالون ثواب الشهيد الذى قتل فى سبيل الله كما ورد فى الخبر.

بينما كان الرسول ﷺ يوما فى البقيع جاء رجل من الخارج وقال وقد رأى قبراً يحفر «ما أقبح مكان الشخص الذى سيلقى فى هذا القبر» فأجابه الرسول معاتبًا.

«ما أسوأ ما نطقت» وبهذا بين لذلك الصحابى أنه يجب أن يصحح ظنه وعقيدته فقال الصحابى: إننى أردت أن أقول لو كان هذا الرجل مات فى أثناء قتال العدو بدلاً من موته فى الفراش فأجابه الرسول بما معناه: ليس فى الدنيا بلد يماثل هذا البلد، فالذين يموتون هنا كأنهم يستشهدون[1] فى سبيل الله، عندى أن

(١) روى الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن عن سبيعة الأسلمية، أن رسول الله ﷺ قال:
«من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت فإنه لا يموت بها أحدٌ إلا كنتُ له شفيعًا أو شهيدًا يوم القيامة».
(مجمع الزوائد ٣/ ٣٠٦).

المكان الذى سيكون قبرى بقعة لا تماثلها بقعة على وجه الأرض. (حديث شريف) وبين أن تلك المقبرة الشريفة مكان فى غاية الاحترام.

بيت

فـلتمت فـى قـرب أحمـد وجـواره

واكتسـب الحيـاة باقيـا فـى هـذا المكـان

ومن حكم عادات أهل المدينة زيارة البقيع الشريف، الصغار والكبار الرجال والنساء جميعًا فى ليلة الجمعة أى بعد عصر يوم الخميس بعد أداء صلاة العصر، ويضع جميع الزوار فوق القبور المعروفة ريحانًا ونباتات خضراً، وبما أنهم يعتقدون أن هذا من جملة سنة الرسول السنية يخافون تركه.

منظومة

ذلك المتوجـه إلـى أرض البقيـع — أحـد العـروش بـين المقـام الرفيع

كل جـانب منهـا نـور يـزين الأرض — كل تلك النجوم من تلك الجهات الأربع

ولأن المنهى هو حصاد للربح المطلوب — فـإن سـتارة الورد فتيلة لنور القلوب

كان الرجال والنساء يزورون البقيع معًا فى الماضى، وقد ألغيت هذه الأصول وأخذ الرجال يجرون السنة المصونة بالذهاب إلى البقيع يوم الخميس بعد أداء صلاة الظهر كما أن النساء يذهبن يوم الجمعة بعد أداء صلاة الفجر.

توضح وتبين كيف يستقبل شهر رمضان الشريف ـ مظهر الغفران ـ من قبل أطفال المدينة وكيف يكون رمضان فى مدينة طيبة.

استقبال رمضان الشريف:

يجتمع أطفال المدينة الطاهرة ـ كنوع من ألعاب الأطفال ـ فى ميدان ما فى التاسع والعشرين من شهر شعبان كل سنة، وبعد ما يعينون من بينهم ثلاثة أطفال يتصفون بطلاقة اللسان ينصبون أحدهم شيخ الحرم والثانى قاضيًا والثالث أمير الحج، ويخرجون فى وقت الأصيل إلى خارج السور ويعودون ومعهم رمضان الشريف ويقال لهذه اللعبة بين سكان دار السكينة «استقبال الأطفال لرمضان الشريف».

وحيثما مد السمع وأنصت بالدقة فى حين الحيرة لمسجد الحرم النبوى الذى يصير وكأنه قد شعشعت فيه الأنوار كأنها أمواج البحار المتلاطمة تسمع اهتزازات أجنحة الملائكة العظام.

وعندما يحل وقت الإفطار وتطلق المدافع ويؤذن فوق المآذن يدعو أصحاب طعام الإفطار من على يمينهم ويسارهم ولا سيما الضيوف إلى الطعام بتعبير مخلص قائلين: «تفضلوا يا أيها الرفاق» ويحسنون ببقية الطعام إلى الزوار الغرباء وبعد خمس أو ست دقائق تتلى الإقامة فيقوم الجميع لأداء صلاة المغرب.

وبما أن تأخير الإقامة فى صلوات المغرب فى رمضان من العادات القديمة فالسادة المؤذنون يؤخرون الإقامة رعاية لتلك العادة الطيبة إلى ختام الإفطار.

وتتم مراسم الإفطار على الوجه المذكور وبعد أداء الصلاة يستصحب كل شخص من أهل المدينة واحدًا أو اثنين من الضيوف ويذهب إلى منزله وبعد الطعام يعود مرة أخرى إلى المسجد وبناء على هذه الأصول تقام فى حرم مسجد السعادة كل ليلة ما يقرب من مائة مائدة للإفطار.

مطالعة

ويُذكر ما يحدث فى بعض البلاد الإسلامية، ولا ذكرت سيما باب السعادة، من الإفطار قبل صلاة المغرب عادة أهل الحرمين الشريفين التى ذكرت ومن هنا يفهم أنه إنما اتخذت هذه العادة فى الممالك الإسلامية اقتداء بأهالى الحرمين الشريفين.

وفى هذه الأصول ـ أى فى عدم ملء المعدة بالطعام مرة واحدة، بل أكل الطعام بعد إفطار خفيف وأداء صلاة المغرب ـ منافع طبية عظيمة. لأن ملء المعدة الفارغة مرة واحدة يؤدى إلى صعوبة إجراء المعدة وظيفتها ويسوق إلى مشكلات وهذا مضر من جميع الوجوه، ومن المفيد تعويد المعدة على أداء وظيفتها بطعام خفيف.

صورة أداء صلاة التراويح:

بعد الآذان يؤدى المصلون صلاة العشاء فى جماعة واحدة. ثم يُشْرَعُ فى أداء صلاة التراويح وقد انقسمت جماعات المسلمين إلى أربعين أو خمسين فرقة. ولكل فرقة إمامها ومؤذنها وأمامهم شمعدانان كبيران وفوانيس متعددة والفوانيس التى أمام الفرق فى ألوان غير مختلفة وتفترق كل فرقة إلى جهة ما من المسجد فيختم بعضها القرآن فى أثناء صلاة التراويح ويؤدى بعضها صلاتهم بقراءة وتلاوة سور طويلة أو قصيرة. فبعض الأئمة يكبرون وبعض الأئمة يتلون القرآن وهذه الحالة المليئة بالفيوضات الإلهية تجذب الأنظار وتثير الحيرة وينجذب إليها الروحانيون للتأمل والمشاهدة وفى ختام التراويح يجرى مرسم موكب الشموع.

سبب إقامة موكب الشموع:

يضاف فى ليالى رمضان الشريفة إلى الشمعدانين الذهبيين اللذين يوقدان بشمع النحل فى الحجرة المطهرة فى الأيام العادية، ثمانية شمعدانات أخرى حتى تُضَاء الحجرة المطهرة بصورة عظيمة. ومن العادات المستحسنة أن يدعى ثمانية أشخاص من ذوى الهيئات من الخارج لإعادة الشمعدانات التى وضعت فى حجرة

السعادة إلى أماكنها فى المخزن، والقيام بهذا العمل والفوز بخدمة سيد الكونين من الأمور الصعبة ألا فليكتبه الله سبحانه وتعالى لجميعنا، لأن تلك الخدمة التى تستوجب المغفرة تنحصر فى أكابر المدينة المنورة من أعيانها وأشرافها وبعض الموظفين الكبار المحليين؛ وبناء على هذا يكتب لثمانية أشخاص تذاكر دعوة خاصة ويخطرون بوجودهم فى موكب الشموع.

والأشخاص الذين دعوا ليكونوا فى موكب الشموع يذهبون عقب أداء صلاة التراويح مع الخدم ويدخلون فى الحجرة التى فيها قبر الرسول الجليل ويأخذون الشمعدانات التى اعتيد إيقادها فى داخل الحجرة وينقلونها إلى خزانة الشموع[1] الكائنة فى شمال الحرم الشريف ويوصلونها.

(١) يطلق الخزينة بين أهل المدينة على الحجرة والمخزون.

فى بيان ترتيب وتشكيل موكب الشموع الذى اعتيد إجراؤه فى مسجد السعادة بعد صلاة التراويح.

بينما يحل وقت إجراء موكب الشموع يلبس شيخ الحرم ونائب الحرم[1] جلبابًا واسع الأكمام ويشدون وسطهم بشيلان خاصة للاستخدام فى مواكب الشموع ويرسلون أطرافها إلى الأسفل ثم يذهبون مع المدعوين بتذاكر الدعوة والذين لبسوا مثلها إلى أمام باب الحجرة المعطرة الذى يطلق عليه الباب الشامى ويدخل شيخ الحرم ونائبه فى داخل الحجرة المعطرة وبعد فترة يخرجان وقد حملا الشمعدانين الذهبيين والأغوات الخاصة بالحرم يحملون الشموع الخاصة الثمانية بليالى رمضان ويعودون بكل وقار وتعظيم لائق وتكريم فائق إلى الباب الشامى ويعطون الشمعدانات التى فى أيدى أغوات الحراسة إلى الموظفين الذين بقوا خارج الباب وينظمون صفوفهم والأشخاص المدعوين لحمل الشمعدانات يحمل كل واحد منهم الشمعدان الخاص به والذى أشير إليه فى تذكرة الدعوة ويأخذ الفراشون شموع مسجد السعادة والشموع التى مقابل المحراب الشريف ويسيرون منتظمين كل واحد منهم خلف الآخر يتقدمهم حاملو شموع الحجرة المعطرة وهم يصلون على النبى ويسلمون أثناء سيرهم فى وقار وتؤدة نحو مخزن الشموع وفى أثناء ذلك ينشد مؤذن رخيم الصوت قصائد فى نعت النبى ﷺ وهو يستقبل مرقده ـ عليه السلام ـ وفى ختام الموكب يدعون لملك الزمان ثم ينادون قائلين «الفاتحة».

(١) إن هؤلاء الأشخاص من رؤساء الأغوات الذين يطلق عليهم «خبرى» وضباطهم، قد رتبت أحوالهم وشئونهم فى الصورة التاسعة.

بينما ينظم موكب الشموع يقف أولاد الموحدين مجتمعين أمام خديقة النخيل[1] ويستقبلون الموكب ويأخذون الشموع التى فى أيدى المدعوين ويوصلونها إلى الحجرة التى يطلق عليها الخزانة، ثم يعودون.

لما كان هذا الموكب العالى يثير فى الناس حالة من الروحانية وشوق وشغف يصر أهالى دار السكينة على مشاهدة هذا الموكب.

(١) هذه الحديقة فى الساحة الرملية لمسجد السعادة.

فى تعريف طريقة أداء صلاة الفجر وصلاة العيد فى شهر رمضان.

صورة أداء صلاة الفجر:

وتبدأ كافة الجماعات الذين اشتركوا فى موكب الشموع وشاهدوه حتى انجلت قلوبهم فى العودة إلى المسجد وحدانا وزرافات قبل حلول وقت صلاة الفجر بساعة ونصف ساعة ويوقد كل واحد منهم شمعة ويواظبون فى تلاوة القرآن الكريم «ودلائل الخيرات»[1] وأحزابًا لطيفة وأذكار منيفة. فتثن أرجاء المسجد الشريف أنينًا بأصداء القراء التى تثير الشوق ونداءات وتأوهات للذاكرين. وتعم روائح الحجرة المعطرة والروضة المطهرة جميع الأركان. وينتعش الجميع وهم يشربون من الفيض الربانى ويلفهم الوجد والحيرة. والقصائد المتنوعة التى تقرأ فوق المآذن والصلوات التى تؤدى بين الصفوف والمحامد، والماء البارد الزلال الذى يقدم إلى العطَاشِ الموحدين من قبل سقائى الخير يجدد الحياة.

وعندما تصل هذه الحالة من الوجد إلى حد الشوق والكمال ويأخذ المؤذنون فى النزول من المآذن يقف رئيس المؤذنين فى مواجهة نافذة الحجرة الطاهرة ويبدأ فى الأذان الداخلى قائلا الله أكبر ويسكت الحاضرون الكرام عن إصدار الصوت وقد عرفوا أن وقت صلاة الفجر قد حان. وهكذا تنتهى أعمال مشتاقى جمال النبى الجميل، وينهمك الأبرار وقد سمعوا صوت المؤذن «أشهد أن محمداً رسول الله» فى أداء صلاة الصبح مقتدين بالإمام الشافعى المذهب وبعد أداء الصلاة يشنفون أسماعهم بما يسمعون من الوعظ والنصائح من العلماء إلى وقت صلاة الأمام الحنفى[2].

(١) للشيخ أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولى السهلالى الشريف الحسنى المتوفى عام ٨٧٠ هجرية.

(٢) معلوم أن الشافعية يصلون الصبح لأول الوقت، أما الحنفية فيؤخرونها قليلاً إلى وقت الإسفار.
والتبكير مذهب مالك والشافعى وأحمد والجمهور. وقال أبو حنيفة: الإسفار أفضل. انظر: شرح النووى على صحيح مسلم ٢/ ٩١٤ طبع دار الغد العربى

صورة أداء صلاة العيد:

بعدما تمضى أيام رمضان كما سبق تعريفه وبعد أداء صلاة العيد وانتهاء الخطبة والدعاء يتجه الناس عمومًا إلى الحجرة المعطرة للدعاء والتضرع. ويقفون أمام رسول الله ﷺ ليسلموا على النبى ﷺ ويعرض كل واحدمنهم ما فى ضميره على النبى ﷺ ويعود إلى بيته.

ومن عادة سكنة المدينة المنورة القديمة الاحتفال بالعيد ثلاثة أيام وثلاث ليال مثل أعياد دار السعادة، تطلق المدافع من القلعة الخارجية عند حلول الأوقات الخمسة وفى هذه الفترة يتزاور الناس ويقبل الصغير يد الكبير وينال دعوته الطيبة، وتقبيل الأيادى فى المدينة المنورة ليس قاصرًا على الأعياد. إذ يقبل جماعة المصلين سواء أكان غنيًا أم فقيرًا أيدى من فى يمينه ويساره.

فى تعريف الهيئة الكاملة لمسجد السعادة فى الوقت الحالى.

تقع مدينة مهجر الرسول ـ على صاحبها أفضل التحية ـ فى نقطة متوسطة من المدينة الساحرة ويقع مضجع حبيب الله ـ أى الحجرة المعطرة التى كانت سببًا لاشتهار مدينة طيبة المقدسة ـ أمام الموقع الذى تطلق عليه «صفة أصحاب الصفة» وبالجانب الشرقى المتصل بالروضة المطهرة.

فالمؤرخون الذين قاسوا مساحة عرض المسجد الشريف المقدس اختلفوا فى أقوالهم ومن ضمن هؤلاء «مولانا عبد الرحمن» الجامى ـ قدس الله سره السامى ـ إذ قال فى أثره القيم[1] إن المسافة من حائط مسجد النبى الجنوبى إلى جداره الشمالى طولاً مائتان وخمسون ذراعًا وعرضه من الجدار الشرقى إلى جداره الغربى مائة وخمسون ذراعًا إلا أن طوله وعرضه فى عهد رسول الله ﷺ كل واحد منهما مائة ذراع. وأضاف «إننى قست الروضة المطهرة وصفة أهل الصفة كل واحدة على حدة وعددت أعمدتها الموجودة واحدًا واحدًا فوجدت طول الروضة المطهرة خمسة وثلاثين ذراعًا وطول الصفة الشريفة اثنى عشر ذراعًا ووجدت عرض الروضة المطهرة عشرين ذراعًا وعرض الصفة عشرة أذرع كما أخبر أن هذا الذراع ذراع شرعى.

قد قست أنا المؤلف ساحة مسجد السعادة من الخريطة المسطحة التى رسمت بعد أن قيست من قبل المهندسين الذين أرسلوا فى عهد السلطان عبد المجيد ـ طيب الله ثراه ـ بالذراع المعمارى فوجدت طول المسجد مائة وستة وخمسين ذراعًا وثمانية أصابع وعرضه جنوبًا سبعة وتسعين ذراعًا وثمانية عشر إصبعا وشمالاً

(١) للجامى مؤلفات كثيرة قيمة أهمها: نفحات الأنس، واللوائح، وشواهد النبوة، وغيرها.
وهو أحد شعراء إيران العظام فى العهد التيمورى، ومن خير المفكرين المسلمين تلقى علوم الحقيقة على مشيخة سعد الدين الكاشغرى شيخ الطريق النقشبندية وصحبه حتى مات عام (٨٦٠هـ)، فاتخذ الجامى مسكنه إلى جوار قبر شيخه ولم يفارقه إلا حاجًا لبيت الله الحرام مرتين إلى أن وافاه الأجل عام ٨٩٨هـ، ودفن مع شيخه سعد الدين الكاشغرى رحمه الله رحمة واسعة.

تسعة وثمانين ذراعًا وستة أصابع إلا أن الجدار الشرقى للمسجد قد زيد فى عهد السلطان المغفور له ما يقرب من ثمانية أذرع فوصل عرض جهته الجنوبية إلى مائة وخمسة أذرع معمارية.

وللمسجد الشريف خمسة أبواب هى: «باب السلام، باب الرحمة، باب جبريل، باب النساء، باب التوسل» ونافذتان تعرفان باسم «نافذة جبريل» و«نافذة المواجهة» وله خمسة محاريب تعرف باسم محراب النبى، محراب عثمان، المحراب السليمانى، محراب التهجد ومحراب النساء. و«باب التوسل» فتح فى عهد السلطان عبد المجيد.

وقد أطلقت هذه الأسماء لبيان الأماكن التى صليت بها، **فمحراب النبى** المكان المقدس الذى صلى فيه النبى ﷺ مؤتما لأصحابه، **ومحراب عثمان** المحراب الذى اتخذ فى عصر عثمان ـ رضى الله عنه ـ **والمحراب السليمانى** المحراب الذى صنعه السلطان سليمان بن السلطان سليم وخصه لأئمة المذهب الحنفى **ومحراب التهجد** هو المحل الذى كان يؤدى فيه الرسول ﷺ صلاة التهجد **ومحراب النساء** هو المكان الذى فى داخل باب النساء وفى مؤخرة حرم السعادة وخاص بالنساء والذى ميز بأقفاص خضراء، وقد أسس «محراب النساء» فى عصر السلطان عبد المجيد خان عصر المبرات عند تجديد مسجد السعادة الأخير.

ولمسجد السعادة فى جهاته الأربعة خمس مآذن، وفى داخل الحرم الشريف أربعمائة وثلاثة وعشرون عمودًا وله أربعون قبة؛ عشر منها كبيرة وست عشرة منها أبيض وأربع وستون منها متوسطة الحجم والباقية صغيرة، وله ألف وسبعمائة وواحد وتسعون قنديلاً، وخمسة وعشرون شمعدانًا، وثلاث عشرة ثريا، وتوقد مائتان واثنان وعشرون من القناديل المذكورة فى ليالى الأيام العادية والبقية فى إحياء ليالى السلطان الشريف وفى الزمن الذى قاسه فيه حضرة «الجامى» كان سبعة وعشرون من أعمدته مصنوعًا من الآجر الملون وسبعة وخمسون منها من الرخام وبعضها من الحجر العادى والبقية منحوتة من الخشب.

وعند التعمير الأخير يعنى عندما جدد المرحوم السلطان عبد المجيد المسجد وأحياه جعل جميع أعمدته من الرخام وخفض عدد الأساطين إلى «٣٢٧».

يقال للأعمدة المصنوعة من الرخام «أسطوانة» فأكثر الأعمدة المصنوعة من الآجر الملون فى داخل الروضة المطهرة وبعضها فى الأماكن الخاصة بإقامة خدمة الحجرة المسعودة والأساطين العادية فى مواقع أخرى.

مائة وأربعة وستون من هذه الأعمدة مربعة، ومائتان وتسعة وخمسون منها مستديرة، وفى التعمير الأخير قد جعل كلها مستديراً فأربعة وخمسون منها فى داخل جدران الجهات الأربعة واثنان وعشرون منها فى داخل الحجرة السعيدة وبيت فاطمة والباقى منها أبواب الحرم السعيد والجهات الأخرى.

يقال لإحدى المآذن «الرئيسية» وللثانية «باب السلام» وللثالثة «باب الرحمة» وللرابعة «المجيدية» وللخامسة «العزيزية» وكل هذه المآذن قصيرة الطول بالنسبة للأخريات وأعلى هذه المآذن المئذنة الرئيسية الخاصة برئيس المؤذنين وباب هذه المئذنة مقابل نافذة الحجرة المعطرة وعلى الركن الشرقى لجدران القبلة.

ويقع المرقد النبوى السعيد فى الجهة الشرقية من الجدار القبلى للمسجد الشريف والروضة المطهرة بين الحجرة المضيئة والمنبر المنير والقبر اللامع لفاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ يقع فى نهاية الحجرة المعطرة الشمالية.

يروى أن قبر السيدة فاطمة الزهراء فى حظيرة ضريح عباس بن عبد المطلب وبجانب قبره فى مقبرة بقيع الغرقد والذى يؤيد صحة هذه الرواية أكثر من الروايات الأخرى قراءة زوار البقيع اليوم الفاتحة لروح السيدة فاطمة وهم يزورون ضريح عباس بن عبد المطلب.

وأطراف الحجرة المعطرة محاطة بشبكة حديدية، ويطلق على المكان الذى يقع بين المنبر المنير والمكان الذى يرقد فيه رأس النبى «الروضة المطهرة»، وعلى الجهة اليمنى لقبر الرسول «المواجهة الشريفة» وعلى اليسار من قبر الرسول حيث محل إقامة خدام الحجرة الشريفة «الدكة»، وللربع الذى فى داخل الشبكة اللطيفة حيث قبر الرسول «الحجرة المعطرة».

ولما كانت الروضة المطهرة والمواجهة الشريفة والدكة اللطيفة خارج شبكة الحجرة المعطرة لا يستطيع الدخول فيها إلا العظماء والسادات والسعداء من أهل المدينة من طينة طيبة أما الزوار السعداء الآخرون فيقفون أمام نافذة المواجهة الشريفة التى فى خارج الشبكة المنورة ويؤدون مراسم الزيارة.

الجهة اليسرى من جدار القبلة ابتداء من باب السلام إلى سبيكة النور شبكة القبر الشريف مفروشة بالرخام، والجهة اليمنى لهذه الأرض المفروشة بالرخام إلى اتصال العمود الشرقى للشبكة اللطيفة أى جهة الاتصال بجدار القبلة محدود بالسور الخشبى[1] فى ارتفاع ذراع ونصف ذراع معمارى وحول محراب النبى والمحراب السليمانى من اليمين واليسار بابان ينفتحان إلى جهة الروضة المطهرة.

إن هذه الساحة الرخامية طريق خاص بالزوار الذين يريدون أن يذهبوا لزيارة الحجرة المعطرة وهو متسع قدر ذراع ونصف ذراع معمارى وهناك ساحة رخامية أخرى تنتهى إلى الساحة الرخامية لباب السلام من الجهة الداخلية وهذه الساحة الرخامية أيضًا طريق للزوار الذين يريدون أن يزوروا الحجرة المعطرة من باب الرحمة.

ويقع محراب النبى ﷺ بين شبكة مرقد السعادة الشريف والمنبر المنير وفى وسط الروضة المطهرة. وقد كتب فوق طاقتى البابين اللذين فى اليمين والشمال كتب فوق أحدهما الحديث النبوى «ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة»[2] (حديث شريف) وفوق طاقة الباب الآخر «من زارنى فى مماتى فكأنما زارنى فى حياتى»[3] (حديث شريف)، وكتب فوق طاقى البابين على جانبى المحراب السليمانى الذى يقع فى جهة باب السلام من المنبر كتب فوق طاق أحدهما «من زار قبرى وجبت له شفاعتى»[4] وفوق طاق الثانى الآية الكريمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ١٠٧).

(١) حينما لم يكن هذا السور الخشبى موجودًا كان ذلك المكان محدودًا بدواليب خدمة الحرم السعيد وعند التعمير الأخير فى عصر السلطان عبد المجيد صب ذلك السور من النحاس..

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير والصغير والأوسط من طرق عن ابن عمر وكلها فيها ضعفاء.
انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى ٤/ ٢.

(٤) رواه البزار عن ابن عمر بإسناد فيه عبد الله بن إبراهيم الغفارى وهو ضعيف. انظر مجمع الزوائد ٤/ ٢.

وقد نقش بالذهب فوق كمر نافذة المواجهة السعيدة الحديث الشريف «إنما الأعمال بالنيات»[1].

الميدان الواقع فى شمال الحرم السعيد مفروش برمل أصفر وهذه الساحة مكشوفة وجهاته الأربعة مغطاة بقبة الفلك الربانى ويطلق على الجهة الجنوبية الشرقية وعلى محاذاة صفة أهل الصفة «روضة الرسول» ﷺ وهى حديقة مربعة الأضلاع قد أحيطت بسور خشبى جميل وفى داخل هذه الحديقة: نخلتان كبيرتان وستة من أشجار النخيل وشجرة تمر هندى وشجرة سدر وفى الطرف الذى تهب منه الرياح بئر ذات ماء حلو. وماء هذه البئر فى غاية اللذة وهو ماء مقبول لدى الأهالى وقيم مثل ماء زمزم.

وقد ذهب بعض الرواة إلى أن روضة الرسول هى حديقة الرسول ﷺ وأشجار النخيل التى فى داخلها قد غرسها بيده الشريفة، إلا أن روضة الرسول وحديقة السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ قد غرس بعض أشجار النخيل التى فى داخلها شيخ الخدمة «عزيز الدولة» وقال ابن جبير: إنه كان فيها فى وقت عزيز الدولة خمس عشرة شجرة. وقال مجد الدين اللغوى: كان فيها أكثر من خمس عشرة شجرة. وأشار ابن فرحون إلى أن أشجار النخيل هذه غرست قبل زمن عزيز الدولة.

هَمَّ بعض سادات المدينة ألا يستحسنوا وألا يستصوبوا فكرة غرس عزيز الدولة أشجار النخيل فى الساحة الرملية للحرم السعيد ولكنهم اختاروا الصمت مراعاة لخاطره وتوقيًا من سوء معاملته. وكانت الرياح العاصفة التى هبت فى عصر شيخ الخدمة ياقوت الرسول قد جففت هذه الأشجار، ولكنه انتزع الأشجار اليابسة وغرس مكانها أشجارًا جديدة.

واعترض الأهالى فى هذه المرة على غرسه لأشجار النخيل قائلين «قد ابتدعت

(١) أخرجه البخارى فى أول الصحيح حديث رقم (١) فتح البارى ١/ ١٥، باب بدء الوحى وأعاده فى باب ما جاء إنما الأعمال بالنية والحسبة...، حديث رقم (٥٤)، ومواضع أخرى فى صحيحه حديث ٢٥٢٩، ٣٨٩٨، ٥٠٧٠، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣.

شيئًا جديدًا» إلا أنهم خسروا دعواهم، وأراد الشيخ طوعان أن يزيد عدد هذه الأشجار فى سنة ٨٧٣ ولكنه لم يوفق نتيجة لاعتراض الناس ومخالفتهم، ولما كانت هذه المسألة موضع اختلاف بين العلماء فلا قيمة لاعتراض الأهالى حينئذ. وقد حكم بعض العلماء بكراهية غرس الأشجار فى حرم مسجد السعادة بينما أباحه الآخرون.

قال مؤلف «زهر البساتين»: ويجوز غرسه مع الكراهة إذا لم تزعج أغصانها الجماعة وإذا غرس بنفسه فهو حرام.

«وقال ابن حجر» تنتفع الجماعة من ظلها واختلف فى حق ثمارها فحكم بعض العلماء قائلين: «فثمارها مباحة لجميع المسلمين مثل ثمار الأشجار التى تنبت فى المقابر» واعترض ابن حجر على هذا الحكم قائلاً: «بما أن غرسها جائز فهى ملك لمسجد السعادة فلا يجوز أكل ثمارها يجب أن تباع ويصرف ثمنها لأمور المسجد».

مازالت أشجار النخيل التى غرسها ياقوت الرسول موجودة وثمارها السنوية خاصة لأغوات حرم السعادة، وتظل أحيانا نخلة واحدة وأحيانًا تزيد وتصل إلى ثلاث أو أكثر من النخلات ويقتطف أغوات الحرم الشريف تمر هذه الأشجار ويهدونه إلى عظماء البلاد الإسلامية وأعيانها.

وقد جدد المسجد النبوى منذ الهجرة النبوية إلى الآن كما ذكر فى الوجهة السابعة سبع مرات وآخر مرة جدد وعمر فى «١١٢٧ و١٢٧٧» هـ.

وإنه لا ينكر ما بذل من الجهود وما أنفق من النقود فى سبيل تعمير وتجديد مبانى مسجد السعادة فى عهود الملوك الأموية والخلفاء العباسيين وملوك الشراكسة المصرين؛ إلا أن ما بذل من المساعى وما أنفق من النقود فى عهد السلاطين العثمانية الخالية من الجهود، ولا سيما فى عهد سلطنة الخليفة عبد المجيد خان والد سلطاننا كثير المحامد، تفوق جميع الجهود التى بذلت فى عهد جميع الملوك السابقين ولا تقاس هممهم بهمم الحكام المسلمين السابقين.

الصورة الثامنة

فى بيان وذكر أبواب حجرة السعادة المعطرة أبوابها وقناديلها وشمعداناتها وعدد خدمها المؤقتة والدائمة عناوينهم، ما معنى الفراشة والقسم، ترتيب، التأديب والمجازاة فى حق الأغوات نوبة الحراسة فى مسجد السعادة ليلاً، وتعريف أداء صلاة الفجر وذكر محاسن الأصول.

للحجرة المعطرة أربعة أبواب هى: باب فاطمة[١]، الباب الشامى[٢]، باب الروضة[٣]، باب الوفود[٤] ولها أربعة وثمانون قنديلاً مثل النجوم.

وشمعدانان من الذهب وإن كانت أبوابها فى عصرنا أربعة إلا أن لها باب مسدود يطلق عليه «باب التوسل».

موقع الباب المسدود هو المحل المبارك الذى يوقف فيه فى الجهة المسعودة، وإذا ما دقق النظر قليلاً يفهم أن ذلك المكان مكان الباب القديم، ويروى أن نعش أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ قد أدخل من هذا الباب.

وقد وضعت القناديل التى ذكرت سالفًا فى الأماكن المناسبة من الحجرة المنيفة ويوقد واحد من الشمعدانين الذهبيين لشرف رأس النبى ﷺ والآخر فى ناحية قدميه الشريفين. ويستخدم صنفان من الأغوات فى الحجرة المعطرة حتى لا تترك خالية ليلاً ونهارًا ويقال لأحد أفراد الصنف الأول «بطال» ولأفراد الصنف الآخر

(١) واسم آخر لهذا الباب هو باب على.

(٢) واسم آخر لهذا الباب هو باب عائشة.

(٣) يقال لهذا الباب: باب التوبة أيضًا.

(٤) وإن كان الاسم الأخر لهذا الباب «باب المواجهة» و«باب الإجابة»، وعلى قول آخر أن باب الوفود اسم قديم لباب الروضة.

ويفتح فى الشدة والكرب والمصائب وفى أوقات الفتح والغلاء للدعاء ويستجاب الدعاء مهما كان الدعاء ويظهر أثره فى وقته ومع ذلك فالدعاء فى حاجة إلى عقيدة صحيحة وإخلاص تام..

«خبزى» ويقوم بمراقبة انضباطهم وإدارتهم ضباط يطلق عليهم «البواب، حامل المفتاح» واسم أفراد أغوات البطالين «عجمى» وأفراد هذا الصنف أقل درجة من أفراد الخبزيين والخبزيون أقل درجة من طاقم «البوابين» وهؤلاء أقل من حاملى المفتاح الذى يقال لهم «السبعة الكبار» وكل واحد منهم يحترم الآخر ويطيعونهم حسب رتبهم.

وكان هؤلاء الخدم الذين يطلقون عليهم الأغوات لا يزيد عددهم ولا يقل عن ثمانين شخصًا ويؤخذ مكان الأغوات الذين يموتون من صنف الخبزيين أقدم الأغوات من صنف البطالين، ويؤخذ مكانهم ملازمى صنف البطال ستة عشر من الخبزيين بوابون ويحملون عناوين «نائب الحرم، مستسلم الحرم، خازن الحرم، نقيب الحرم» وفيهم أربعة ضباط وكان أكبرهم «شيخ الحرم» وكان يبعث ويعين من مقام الخلافة الجليل[1] وكانت المحافظة على الحجرة المعطرة تتبع نظامًا مستحسنًا وكان عدد البوابين عند نوبة الحراسة أربعة وكانوا يظلون فى داخل الحجرة المعطرة فى أثناء الحراسة وكانوا يقسمون فيما بينهم ما ينفحهم به الزوار فى أثناء الحراسة وكان الضباط يرقون إلى درجة أعلى حسب أقدميتهم.

وكانت من أحكام القواعد التى اتخذت أن يتواجد فى داخل الحجرة المعطرة تسعة وعشرون شخصًا من الحراس خمسة وعشرون منهم من أغوات الخبزيين أو أغوات البطال غير أربعة بوابين. والذين يخرجون من نوبة الحراسة يجلسون فوق صفة أصحاب الصفة على ركبهم يشغلون وقتهم بالذكر والتهليل وقراءة الأحزاب الشريفة والأوراد المباركة إلى أن تتم نوبة حراستهم وكان خدم الفراشة يدخلون فى داخل الحجرة المعطرة ويوقدون القناديل التى كلفوا إيقادها وخفضوا مؤخرًا عدد الأغوات إلى خمسة أشخاص وأبلغوا عدد الخدم الآخرين وزادوه إلى العدد الذى درج فى الفهرس الأسفل، وكان أحد الأغوات الخمسين مُسْتَسْلِمًا وأحدهم

(١) وظيفة شيخ الحرم الجليلة كانت خاصة بالأشخاص الذين يحرزون الأغوية فى باب السعادة ثم عمم ووجه فيما بعد إلى الوزراء ومشيرى العساكر السلطانية ذوى الاحترام.

نقيبًا واثنا عشر فيهم بوابًا وتسعة عشر منهم خبزيًا وأربعة عشر بطالاً وثلاثة منهم من أفراد الملازمين.

سبب وتاريخ استخدام الأغوات فى الحجرة المنيفة

يقول خير الدين إلياس المدنى نقلاً عن المرحوم فلاح الفلاح راويا: «لم يكن هناك أصول استخدام الأغوات فى الحجرة المعطرة إلى ظهور الدول التركية».

قد استحسن بعض المنتمين إلى الشهيد نور الدين لبعض الأسباب استخدام الأغوات فى الحجرة المنيفة وأبلغوا الأمر بواسطة بعض الأمراء الذين كشفوا الأمر إلى الشهيد نور الدين وأخذوا موافقته على هذا الأمر، وبناء عليه اختاروا اثنى عشر أغا كلهم من حفظة القران الكريم وأرسلوهم إلى المدينة المنورة. واشترطوا فيمن يعين مكان الذين يتوفون منهم فوق حفظه للقرآن الكريم أن يكون حبشيًا إن أمكن وإلا من أهل الروم وإذا لم يوجد أن يكون هنديًا وسقط حكم هذا الشرط بعد فترة فأرسلوا كلهم من الهنود ثم ترك أصول إرسالهم من الهند فعين الأغوات الحاليون وفق النظام الأخير.

وقد أبلغ صلاح الدين الأيوبى عدد الأغوات إلى أربعة وعشرين وعين شخصًا يسمى الشيخ بدر الدين ضابطًا عليهم ووقف إيراد بلدتى «نقادة وقيادة» عشر محاصيلها لإدارة الأغوات وإعاشتهم. وكان الأغوات الذين يستخدمون لذلك الوقت يخدمون حسبة لله ويتعايشون بالهدايا والعطايا التى يرسلها أصحاب البر والخير. وأخذ يطلق على شيخ الخدم بدر الدين الأسدى «شيخ الحرم» فزاد قدرًا ومكانة، وسواء كان الشيخ بدر الدين أو الأشخاص الذين أصبحوا فيما بعد شيوخًا للحرم كانوا يلاقون من موظفى المدينة المنورة ومن وزراء وأمراء المسلمين الذين يزورون المدينة المنورة احترامًا وتوقيرًا، وذلك تعظيمًا لصاحب الروضة «عليه وعلى آله أكمل التحية».

والنظام الذى وضعه صلاح الدين الأيوبى نُقِضَ فيما بعد وأرسل الأغوات إلى الحجرة المعطرة من قبل ملوك المغاربة والسودان وسلاطينها حتى تجاوز

عددهم مع توابعهم وعبيدهم مائتى شخص، وظهرت النفرة والعداوة بينهم وبين أهل المدينة حتى أدت هذه الحالة فى النهاية إلى قيام الجدال والقتال بينهم.

وقد دامت المنافرة بينهم فترة فى الواقع وأخذ عدد الأغوات فيما بعد يزيد وينقص ولم ينحصر إرسال الأغوات إلى الحجرة العطرة فى سلاطين المغاربة والسودان وسلاطينهم إذ أخذ بعض أصحاب الخير يشاورون عبيدا أو يوقفونهم لخدمة الحجرة المنيفة فاختلط جنس الأغوات وزاد فيما بينهم أصحاب الأخلاق الطيبة وتحولت العداوة التى بينهم وبين الأهالى إلى المودة والأخوة فانخفضت العداوة بينهم كليًا فتعاملوا فيما بينهم مثال الأخوة.

لأغوات مسجد السعادة والحجرة المنيفة وظائف شهرية مخصصة لكل واحد منهم حسب موقعه ومكانته ولهم نظم جارية وقوانين مرعية مثل حراسة المسجد والحجرة المطهرة وتنظيف القناديل وإيقادها وقضاء الليل فى داخل المسجد ولهم أرزاق ومرتبات معينة من قبل السلاطين العثمانيين الكرام. ولهم ثكنات موقوفة من قبل أصحاب البر والخيرات وحدائق ذات محاصيل ولهم صرر تبعث من قبل أصحاب البر فى جميع البلاد الإسلامية وتقسم هذه الصرر بعلم شيوخهم ورؤسائهم وتوزع عليهم كلهم. وجميع الأغوات الذين فى زماننا هم من أصحاب الصلاح والخير ويتسمون بالوقار ويوثق بهم. وإذا ظهرت من بعضهم الرعونة ـ حسب البشرية ـ فإنها لا تجاوز الدائرة المنجية للشريعة الغراء وبما أنهم يخدمون ويرعون ملك الكائنات ـ عليه أكمل الصلوات ـ يلزم ألا يؤاخذوا على ذلك فإذا ما أدوا وظائفهم فى وقار تام وأدب تام فلا يتصور عمل أشرف ببنى البشر من أعمالهم.

ينقسم الأغوات الذين ينحصر عملهم فى إيقاد القناديل وإطفائها إلى قسمين يقال لقسم منهم «سندبليس» والقسم الآخر «مكادة»، وبما أن كل جهات حرم السعادة قد عينت وخصصت لأفراد منهم فعندما يحل الوقت المعين ينشغل كل واحد منهم بعمله ولا يجوز لأى واحد منهم أن يوقد أو يطفئ قناديل الآخر

وبهذا لا يتدخلون فى خدمات بعضهم بعضًا ولا توصف السرعة التى ينجزون بها أعمالهم.

تعريف مقدار خدمة الفراشة الشريفة الجليلة:

تطلق على الخدمة القيمة للكعبة المعظمة والحجرة المعطرة الفراشة الشريفة وقد هيئت هذه الخدمة ووضعت وفق عدد قناديل الحجرة الشريفة ومشاعلها.

قد رتب واضع خدمة الفراشة الجليلة مائة وأربعين قطعة من الفراشة على أن تكون كل قطعة منها أربعة وعشرين قيراطًا. وخص أربعة وعشرين قيراطًا منها بالخليفة العالى الشأن واثنى عشر قيراطًا بأشراف مكة المكرمة وست قراريط بالمنتسبين للحجرة المعطرة وست قراريط لنقباء الفراشين وقسم كل قيراط من اثنتين وتسعين قطعة لخمسة أو ستة أو ثمانية أو عشر أشخاص فأوجد بهذا خمسة آلاف أو ستة آلاف من خدمة الفراشة السعيدة. وقد وضع هذا النظام فى عصر الدولة العثمانية عصر الميراث للمشتاقين لخدمة رسول الله ﷺ التى تستوجب المفخرة وقد خصص لكل قيراط منها حبوب وافية لتكريم أهالى المدينة المنورة ومكة المعظمة، والحبوب التى خصصت لكل قيراط تعطى من قبل الشخص الذى نال هذا القيراط بالبراءة والإذن إلى الأشخاص الذين وكلهم لأداء الخدمة اللازمة من أهالى الحرمين. كما أن أصحاب الفراشة يرسلون كل عام إلى من وكلوهم من أهل الحرمين مقدارًا من الهدايا باسم «الصرة» غير الحبوب فوكلاء خدمة الفراشة من أهالى الحرمين يمضون أوقاتهم قانعين بما يأخذون من مرتبات من خزانة الأوقاف السلطانية، وما يرد إليهم من الصرر من موكليهم.

إن الخدمة الجليلة للفراشة قد قسمت إلى مائة وأربعين قطعة وجزءا كما سبق ذكره أعلاه ولكنها قسمت فيما بعد إلى سبعة آلاف قطعة أو ثمانية آلاف ووزعت على أهالى الممالك الإسلامية بإذن من السلطان وكل من نال ربع قيراط من خدمة الفراشة يوكل أحدًا من أهالى الحرمين - كما سبق ذكره - ويرسلون للأشخاص الذين وكلوهم صرة نقدية كل سنة، وبناء على هذا يمكن أن يوكل

فراش واحد من قبل عشرة أشخاص أو أزيد وبهذا يوجد من وظيفته أن يوقد «شمعة» أو «قنديلاً» كل خمسة عشر يومًا أو عشرين باسم موكله وبهذا يمكن لوكلاء الفراشة أن يتعايشوا بما يأخذون من الوقف السلطانى من المخصصات وما يرسله أصحاب البراءات العالية من الصرر.

أغلب أهالى الحرمين يتعايشون وفق ما حرر أعلاه والمشتاقون لخدمة النبى ﷺ يبتهجون ويتباهون بحصولهم على ربع قيراط من خدمة الفراشة الجليلة، وهذا يبين مدى رعاية السلاطين العثمانية للمرقد النبوى الجليل وحرم المسجد الحرام وعظم تقديرهم لها.

يطلق على رؤساء الوكلاء الذين تعهدوا بالقيام بخدمات الحجرة المعطرة بدلاً من أصحاب الفراشة الشريفة «شيخ الفراشين» وقد أمسك هذا الشخص دفترًا لتقييد أسماء الوكلاء وتسجيلها وقد تحققت أنه قد قيد فى الدفتر الحالى أسماء ما يقرب من ألف وكيل.

ولما كان الشيخ المشار إليه شخصًا عظيم القدر ذا صفات عالية عند أهل المدينة فمن وظائفه أن يدخل إلى الحجرة المنيرة عند إيقاد قناديلها مع شيخ الحرم ونائبه وخازن خزانة الحرم ومن وظيفته الإشراف على عشرين شخصًا هنديًا المعينين لتعمير الثريات والقناديل وترميمها وتنظيفها.

مقام أبى بكر وعمر رضى الله عنهما:

فى داخل الحجرة المعطرة وتحت الغطاء القماش المصرى المزركش لقبر السعادة. وحيثما وجد هذان القبران فى الحجرة المسعودة قد نسخ فوق قطعة القماش التى تغطى القبر اسم صاحبه كما أن اسم النبى الطاهر قد زين ونقش باللآلىء الغالية.

وأرضية الغطاء القماش أخضر اللون، وخطوطه بيضاء، وقد زين الغطاء ـ غير الأسماء السابقة ـ بالصلوات الشريفة وأسماء النبى ﷺ بخطوط نفيسة.

ولما كان غسل داخل الحجرة المعطرة كل سنة فى اليوم التاسع من ربيع الأول وفى غرة رجب الفرد والثامن عشر من ذى القعدة من الأصول المتبعة فإنها تُطَيَّبُ وتغسل فى الأيام المذكورة.

وإن كان قد خصص ثلاثة أيام لغسل الحجرة المعطرة إلا أن القيام بهذا العمل على ما هو المطلوب غير ممكن لذا أضيف لتلك الأيام المذكورة يوم لكل واحد منها ففى الأيام الأولى تنظف وتغسل الشمعدانات والقناديل. وفى اليوم الثانى ينظفون داخل الحجرة المنيفة وخارجها ويعطرونها وفق الأصول الآتية:ـ

صورة غسل حجرة السعادة

يقف أغوات الخبزيين العجمى كلهم أمام الباب الشامى منقسمين إلى ثلاث فرق ـ وذلك فى الأيام التى تغسل فيها وتمسح الحجرة المعطرة ـ وفى أيادى فرقة منهم مقاشط خاصة بالحجرة المعطرة والفرقة الثانية معهم مكانس مصنوعة من سعف النخيل والفرقة الثالثة يمسكون بقطع من الإسفنج الكبير ويرتب كلهم صفوفهم، ثم يفتحون الباب الشريف المذكور ويدخلون فى داخل الحجرة المعطرة بكل أدب وسكون يقشطون ما يلزم قشطه وبعد أن يكنسوها جيداً ويمسحونها بقطع الإسفنج ثم يخرجون واحداً تلو آخر خارج شبكة القبر الشريف يوزعون الباقى من الماء المستعمل على سادات سكان المدينة فينالون العطايا.

ويستمر الأغوات الذين فى داخل الحجرة الشريفة فى أثناء الغسل فى ذكر «لا إله إلا الله محمد رسول الله» والأشخاص الذين اجتمعوا فى الحرم الشريف من أصحاب الشوق والإخلاص يصلون ويسلمون على النبى ﷺ فى صوت واحد، ولا يستطيع أصحاب الوجد أن يمسكوا دموعهم فى هذا الوقت الذى قد امتلأ فيه مسجد السعادة بالصفاء والدهشة والمهابة وهذه الحالة المليئة بالروحانية لا يمكن وصفها ولابد من رؤيتها رؤية العين.

الخدمة الدائمة للخدم:

لما كان نيل سعادة خدمة الحجرة المسعودة غير ممكن التصور لأنها خدمة عظيمة

الشأن فالذين ينالون هذه السعادة من الأمور الطبيعية بالنسبة لهم أن يقوموا بأعمالهم بالوجد والحب والحرص الشديد على أداء أعمالهم على خير وجه؛ لذا يجتمع الفراشون بمسجد السعادة والآخرون من المخلصين والمحبين بعد أداء الصلوات المكتوبة كل صباح أمام مخزن الزيت[1] الكائن فى نهاية مسجد السعادة فيدعون حسب العادة.

وبعد إتمام الدعاء يذهبون فى تؤدة إلى الروضة المعطرة وهم يصلون ويسلمون وقد أخذ كل خادم إناءً نحاسيًا صغيرًا ودستة من فتيل مزيت وبعد أن يعطوا لأربعة منهم إبريقًا مزينًا مملوءًا بزيت الزيتون.

ولما كان فى أيادى أغوات الحراسة الذين يسيرون أمام الفراشين عصيان ذات كلاليب فكل واحد منهم ينزل القناديل الخاصة به وبعد أن يغير[2] الفراشون الذين بجانبهم فتائلها يعلقونها فى أماكنها، ثم يصلون صلاة الإشراق ويعودون إلى أماكنهم. وبعد أن ينتهى الفراشون من مسح القناديل وتغيير فتائلها والكناسون من كنس الحرم الشريف ينادى أحد الخدم الذين اجتمعوا أمام الباب الشامى «يا كناس» وكأنه يريد أن يبين لزملائه أن وقت كنس الحجرة المعطرة قد حان، ويسرع الكناسون للاجتماع أمام الباب الشامى من الحجرة المعطرة ويدخلون فى الحجرة المنيفة ويكنسونها وهم يوحدون ويهللون ثم يخرجون.

تأديب الأغوات المتهمين:

من مقتضيات الأصول المرعية أن يقف الأغوات كلهم من خبزيين والعجمى حسب رتبهم مصطفين بعد الانتهاء من خدماتهم فى تنظيف الحجرة اللطيفة والمسجد الشريف، كما سبق تحريره، وذلك لتأديب الأغوات المتهمين. ويأتى الأغا الذى كانت عليه نوبة الحراسة بالمتهمين فى الميدان وينسحب إلى مكانه وعندئذ يتقدم أحد ضباط الأغوات عدة خطوات ويقدم للمتهم بعض النصائح ثم يأمر بإحضار العصا كما أن استجواب المتهمين ومحاكمتهم يتمان فى مكان آخر

(١) يقال لهذه الخزانة «خزانة التعمير» أيضًا.

(٢) إن سرعة إنزال القناديل وتعليقها مرة أخرى مهارة خاصة بخدمة الحجرة المعطرة.

وعند ثبوت التهمة يتم إحضار المتهم وضربه من مقتضيات القانون القديم الخاص بالأغوات.

ولما يُؤْتَى بالعصى يدخل المتهم بواسطة اثنين من الأغوات إلى خزانة الشموع التى تقع أمام الحجرة الشريفة وتدخل رجلاه فى الفلقة[1] ويؤخذ فى ضرب المتهم على رجليه والجهر بكلمة الشهادة عند الضرب بينما يقف الأغوات الآخرون خارج باب خزانة الشموع فى حالة انتباه.

ويأخذ المتهم الذى أدرجت رجلاه فى الفلقة فى الصياح والاستغاثة، وإذا وجد من يشفع له يُخلى سبيله وإذا لم يوجد من يشفع يضرب إلى أن يقول «**الفاتحة**» ويغلق باب خزانة الشموع بعد الفاتحة، ويجلس الأغوات الذين عليهم نوبة الحراسة فوق صفة أصحاب الصفة متجهين إلى القبلة بينما يذهب الذين أنهوا نوبة حراستهم إلى تناول الطعام بعد أن يمسحوا ظهرهم على العمود الذى يقع فى الجهة اليمنى لمحراب التهجد وتقبيل أيادى الحراس السابقين.

تأسف: يجهل التاريخ وقت اختراع بدعة ضرب الأغوات وتأديبهم فى داخل مسجد السعادة ولما أصبح هذا النظام فى حكم القانون ولم تفترضه أية جهة فمثل هذا العمل يعد بدعة، خارجًا عن دائرة الأدب، ومخالفًا لأحكام الشريعة؛ فقد أحضروا للفاروق الأعظم فتى يستحق الضرب والتأديب، ولما كان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فى داخل المسجد أمر بأن يخرج المتهم خارج المسجد حيث يضرب ويؤدب، أما فى زماننا فإن الأمر تجاوز حد ضرب وتربية الأغوات بعضهم بعضًا إلى ضرب شيوخ الخدمة وتأديب أى واحد منهم ارتكب هفوة حتى ولو كان أمام قبر الرسول دون خجل واستحياء، فيصرخ المضروبون ويولولون دون أن يراعوا الأدب فى المكان المقدس. وللأسف الشديد فإن السلوك الذى نهى عنه حضرة الفاروق قد أصبح بدعة مستحسنة بل أخذ حكم الطاعة والعبادة.

ذيل: سألت أحد أهالى المدينة الكرام قائلاً: «إن الضرب فى داخل الحرم

(١) الفَلَقَةُ: عود يتصل به حبلان كانت تُمْسَكُ بهما القدمان عند الضرب.

الشريف يخالف الآداب السلوكية يا ترى ضرب الأغوات ـ كما سبق ذكره ـ يستند إلى دليل موثوق؟

«فأجابنى ذلك الرجل على هذا الوجه: «فى الواقع ضرب الإنسان فى داخل مسجد النبى سوء أدب! ولكن لضرب الأغوات وتأديبهم فى داخل المسجد فائدتان:

١ـ **الفائدة الأولى**: إنقاذ واحد من جماعات المسلمين ـ من الزوار، أو المجاورين ـ المتهم من الضرب. إذا جاء وقبلَ يد الضارب يجب أن تقبل شفاعة هذا الرجل ورجاؤه وإن كان رجلا قليل الشأن ويعفى عن المتهم.

٢ـ **الفائدة الثانية**: أن يضرب المتهم فى داخل الأصناف فإذا ما ضرب المتهم خارج المسجد وفى مكان خفى فإن الأغوات قد يضربونه إلى أن يموت لما فطروا عليه من الرعونة والشدة! وإذا قال المتهم تحت الضرب وإننى لم أرتكب هذا الذنب، فإنكم تضربونى بدون وجه حق أو يخرج من فمه ـ كثيراً ـ ألفاظا مخلة بالآداب فيستمرون فى ضربه قائلين: «إنك تعصى من هو أعلى منك رتبة».

قد شوهد تكرار الضرب حتى فى داخل المسجد عدة مرات!! وذات يوم قال شيخ الحرم شوكت باشا: «إن ضرب إنسان فى داخل مسجد السعادة مخل بالآداب. وبعد هذا اليوم فليبلغ عن كل من يرتكب جُرْمًا من قبل ضابطه ثم تشكل هيئة من ضباط الأغوات لاستجواب المتهم ثم يسجن ويؤدب ويضرب فى مكان مناسب».

وألغيت عادة تأديب المتهمين بهذا الشكل داخل مسجد السعادة. وأراد ضباط الأغوات أن يبينوا خطأ رأى شوكت باشا وردهم لهذه الفكرة فقالوا: «إن زمرة الأغوات تتكون من طائفة العجمى فإذا ما ترك هؤلاء أحراراً يضلون كما يشاءون فيصعب الحفاظ على مسجد السعادة ولاسيما الحجرة المعطرة، فتقع الأمانات والأشياء النفيسة المباركة فى يد السفلة. ومن هنا يقتضى الأمر تربية هؤلاء ولابد لهم أن يحترزوا من رؤسائهم» إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقنعوا شوكت باشا برأيهم. ولما أصبح عادل باشا شيخًا للحرم، كرر الأغوات مطالبهم السابقة

ورجوا منه أن يسمح لهم بإجراء أحكام عاداتهم السابقة وأصروا عليه. فقال لهم عادل باشا موافقًا: «اعملوا وتصرفوا وفق عاداتكم القديمة» والآن يتصرفون كما كانوا يتصرفون من قبل.

وعندما يقترب المساء وقبل حلول وقت صلاة المغرب بعشر دقائق يشير الموقدون إلى الفراش الذى عين لإيقاد الشموع والذى ينتظر تحت محفل المؤذنين فيعلن هذا الفراش بصوت مرتفع حلول الوقت قائلاً: «بسم الله» وعندئذ يجتمع الخَدَمَةُ كلهم وقد سمعوا الصوت عند شيخ الحرم النبوى ويقفون أمام قبر الرسول ﷺ، فيرفع شيخ الحرم يده داعيا وفقًا للأصول ويخرج من خزانة الشموع الشمعدانين الذهبيين فيعطى أحدهما لشيخ الحرم والآخر لنائب الحرم فيدخلان إلى حجرة السعادة، ويسيران فى داخل الحجرة المعطرة بكل أدب وتعظيم ويضع شيخ الحرم أحد الشمعدانين ناحية رأس النبى ﷺ والآخر ناحية قدميه، وبعد أن يتمسحا بقبة قبر الرسول ﷺ يخرجان. ثم يدخل شيخ الحرم إلى الحجرة الشريفة مرة أخرى بعد أن يعطى لشيخين شمعتين مدببتين لإيقاد قناديل الحجرة وإناءً مدببا من النحاس[1] لكل واحد منهما.

ومن القوانين القديمة ومقتضياتها أن من يضع الشمعدان الذى يوضع بجانب رأس النبى ﷺ هو شيخ الحرم وأن يدخله بذاته، كما أن الشمعدان الذى يوقد بجانب قدمى النبى ﷺ يدخل من قبل نائب الحرم ويخرج كذلك. كما أن القوانين المرعية أن يحمل خازن خزانة الحرم فى أثناء ذلك مبخرة وينهمك شيخ الفراشين بالدعاء؛ إلا أن نقل المبخرة الذى يستوجب الفخر وإن كان خاصًا بالخازن قد شوهد أحيانًا قاضى المدينة المنورة ومدير الحرم السعيد قد حملاها متناوبين.

بعد أن يؤدى شيخ الحرم ونائب الحرم مهمتهما مصلين مسلمين يعودان متقهقرين أحدهما من يمين القبر والآخر من يساره، وبما أن الأشخاص المكلفين بإيقاد القناديل يؤدون مهمتهم ومعهم المشار إليهما، يُؤذَّنُ بعد ذلك وينصرف كل واحد إلى جهة لأداء الصلاة.

(١) تهدى هذه الأوانى من قبل أصحاب الخيرات.

إخطار

إن السعداء الذين يتواجدون فى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول ﷺ وهم يحملون البراءة السلطانية لخدمة الفراشة يستطيعون أن يؤدوا وظائفهم بأنفسهم بدلالة وكلائهم وذلك مثل إيقاد القناديل. انتهى.

وبعد أن تؤدى صلاة العشاء وتتفرق جماعة المصلين يغلق أغوات الخبزى والعجمى أبواب الحرم وقد أمسكوا فى أياديهم فوانيس ملونة ويخطرون من يصادفونهم من الأفراد بضرورة خروجهم من المسجد قائلين «بسم الله» أو «لا إله إلا الله» وبعد أن يغلقوا أبواب المسجد يستقبلون حجرة السعادة ويصيحون قائلين «الصلاة والسلام عليك يا رسول الله» وهم واقفون أمام باب الرحمة ويصلون على النبى ﷺ مجتمعين فى صوت واحد.

وروحانيته عندما تنضم آيات الفيوضات النبوية إلى سكون مسجد السعادة وهدوئه وروحانيته فإن المهابة والدهشة المعنوية اللتين تحدثهما الصلوات التى يطلقها الأغوات، تلك الصلوات المليئة بالوجد المحمدى تصيبان الإنسان بالقشعريرة وتوقفان شعر بدنه ترفرف روحه حول بدنه كأنها أثير، ولا يمكن لهؤلاء الذين يستمعون لهذه الأصداء التى تثير الأشواق إلا أن يبكوا وإن كانت قلوبهم قدت من صخر.

صورة تسكين الأغوات:

ينسحب الأغوات عقب الصلاة والسلام على محمد ﷺ إلى الساحة الرملية لحرم السعادة، وينامون فى مكان مخصوص لهم أمام باب النساء على وضع غريب، ولكل أغا فرش للنوم يشبه الخيمة، وحينما ينفردون للنوم يضع كل واحد منهم عمته فوق فراش النوم ثم يتجهون برءوسهم نحو الروضة المطهرة وبأرجلهم نحو باب النساء ونصف أجسامهم تحت الخيمة والنصف الآخر خارج الفراش الذى يشبه الخيمة. فإذا ما رأى أحد هذه العمم فوق الفراش يظن أن الأغوات قد وقفوا لأداء الصلاة مصطفين.

ومن أحكام القوانين القديمة أن يظل أحد الأغوات فى داخل مسجد السعادة لنوبة الحراسة وأن يفتح الباب كل ليلة لرئيس المؤذنين الذين يؤذنون قبل الصباح بثلاث ساعات من باب النساء وينادى مخاطبًا أغوات الحراسة قائلاً: «لا إله إلا الله»؛ فيجيب الأغا الذى فى نوبة الحراسة من الداخل «محمد رسول الله» العبارة المنجية ويفتح له الباب. وبعدما يفتح باب النساء ويضع الأغوات فرشهم فى المكان الخاص بها يقف رئيس المؤذنين أمام المئذنة الرئيسية يأخذ الدستور وهو يصلى على النبى ﷺ قائلاً: «اللهم صل وسلم وزد وأنعم وبارك على أسعد العرب والعجم إمام طيبة والحرم سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد وسلم ورضى الله تعالى عن كل الصحابة أجمعين الفاتحة»، ثم يصعد على المئذنة سابقة الذكر ويأخذ فى التهليل والتسبيح ويوقظ سكنة دار السكينة من نوم غفلتهم ثم يتبدد الصوت وهو رخيم حزين محرق فى الأذان والذين يسمعون الأذان يستيقظون ويتوضئون ويوقظون أهل البيت ثم يذهبون إلى المسجد الشريف ويواظبون فى قراءة الأذكار إلى أن يحين وقت الصلاة، وذلك لأداء الصلاة والسلام فوق المآذن إلى طلوع الفجر وبعد ذلك يؤذن للإعلان عن حلول وقت صلاة الفجر.

ومن أحكام القوانين الجارية بين الأغوات إغلاق باب النساء بعد دخول المؤذن وعندما يصل المؤذنون الآخرون يفتح الباب المذكور مرة أخرى ويغلق بعد دخولهم وتستغرق الأوقات غير أذان المغرب نصف ساعة وتستغرق التهاليل والتسليمات والتسابيح التى تلقى قبل صلاة الفجر ساعتين ونصف ساعة ويتناوب المؤذنون سواء كان فى الأذان أو التسابيح والتهاليل. ومن عادات أهل المدينة التى لا يطرأ عليها التغيير، صعود رئيس المؤذنين على المئذنة الرئيسية قبل طلوع الفجر بساعة، وإبقاء الأغوات القناديل والثريات عندما يبدأ المؤذن فى الصلاة والسلام، ووصول الأهالى واحداً تلو آخر ليظلوا فى انتظار حلول وقت صلاة الفجر.

وفى الوقت الذى يمضى بين الأذانين ينهمك بعض الجماعة فى تلاوة القرآن وبعضها فى ذكر الله والبعض الآخر يسفحون دموع الندامة من عيونهم، ويحل

فى المسجد بإصدار أصوات الحفاظ همهمة تخرج أصحاب الوجد والإخلاص من شعورهم، وفى هذه الحالة من السعادة ينزل المؤذنون من المآذن وينادى الذين فى المحفل قائلين، الفاتحة، ويؤدى العلماء الكرام مع الجماعة ركعتى السنة وعند الإقامة يصلون فرض صلاة الفجر مقتدين بإمام المذهب الشافعى ثم يدعون ويبتهلون ثم تبدأ رحلة الوعظ والنصيحة ويستمع إلى القرآن الذى يتلوه الحفاظ المحترمون.

ويمضى الوقت على هذه الحالة ما يقرب من ساعة ثم ينادى أغوات نوبة الحراسة قائلين «الصلاة» فينهى العلماء دروسهم ونصائحهم ثم تقام الصلاة مرة أخرى فتصلى جماعة المذهب المالكى، وبعد أداء الصلاة والدعاء يفتح باب الحجرة ويلج شيخ الحرم ونائب الحرم فى الحجرة الطاهرة ويخرجان الشمعدانين منها ويدعوان بعد إطفاء القناديل.

خدمات خدم مسجد السعادة الدائمة والمؤقتة:

وكان للمسجد الشريف قديمًا غير أغوات حجرة السعادة مائة وعشرون شخصًا من الخدم والموظفين، وكانوا ينقسمون إلى ثلاثة أقسام هى «البوابون، الفراشون، والكناسون» وكان كل قسم تحت رياسة شيخ ما، كما كان يستخدم ثلاثون شخصًا من الخارج يطلق عليهم «وكلاء الخدم» وكان للمسجد الشريف فى تلك الأوقات خمسة وعشرون إمامًا حنفيًا، اثنا عشر إمامًا شافعيًا، وعشرون خطيبًا حنفيًا، وعشرة خطباء من المذهب الشافعى، وخطيب مالكى وآخر حنبلى، وخمسة وثلاثون مؤذنًا، وكان هؤلاء كلهم يؤدون خدماتهم بالمناوبة، ومع مرور الأيام زاد عدد الخدم حتى وصلوا إلى العدد الذى سيرى فى الفهرس الآتى:

الخطباء والأئمة فى الحرم النبوى الشريف

العدد	الشخص
٤٦	الخطباء الكرام «يقومون بالإمامة أيضًا بعض الأوقات»

٣٧	الأئمة الكرام
٣١	مراهقون
٣٤	صغير
١	نقيب

١٤٩	المجموع
١	شيخ
٣٨	رؤساء

٣٩

مكبرو الحرم الشريف

١	شيخ
٢٥	مكبر
٢٦	المجموع

- ١٩[1]

٧

١	برقى
١	نقيب الرؤساء
١	موقت الحرم الشريف

٣	المجموع

(١) ربما أن من يقومون بمهمة الرؤساء وقد قيدوا فى صف الرؤساء طرحوا من هنا.

بوابو الحرم الشريف
٢ بواب باب الرحمة
٢ بواب باب السلام
٢ بواب باب النساء
٢ بواب باب التوسل
٢ بواب باب جبريل
١ بواب السور الخشبى

---

١١ المجموع

سقاءو الحرم الشريف

١ الشيخ
٩ السقاءون

---

١٠ المجموع
الحراس الذين يقفون مصطفين عندما يفتح باب الحجرة المعطرة صباحًا ومساءً
١ شيخ

استطراد

لم يكن فى صدر الإسلام أمام خطباء المدينة المنورة مؤذن منبر، وبعد ما احترق مسجد السعادة وخرب وضع نظام وجود أحد الأشخاص أطلق عليه مؤذن المحراب لحماية الخطباء من اعتداءات الأشقياء، وكان أكبر دافع لوضع هذا النظام هو اعتداء فرقة من غلاة الفرقة الإمامية وإساءتها، وقد استولت تلك الفرقة المذكورة على المدينة المنورة قبل الحريق وبالتدريج تغلب أفرادها على أفراد مذاهب الحق بالتدريج وسيطروا على مسجد السعادة وعلى جميع المساجد الأخرى والأضرحة التى أداروها وفق تعليمات وطقوس مذهب الرفض والإلحاد ومنعوا أصحاب المذهب الحق من الدخول فى مسجد السعادة وطبقوا فى المسائل الشرعية أحكام مذهبهم وحرفوا دقائق الكتب الفقهية كيفما شاءوا.

وانتزعوا زمام الحكم فى فترة ما واغتصبوا دور إفتاء مذاهب الحق، وتدخلوا فى الأحوال الشخصية لهذه المذاهب الحقة من حيث عقد النكاح وأخضعوا على الأحكام الفرعية لمذهبهم وأصبح لا يعقد النكاح دون الاستئذان من قضاة تلك الطائفة ودون وجود أحد أئمتهم. وطفح كيل أهل المدينة من مظالمهم التى لا تطاق وتشتتوا فى أطراف البلاد الأخرى فرادى ومثانى، واتحد أفراد الملاحدة واتفقوا على ألا يدخلوا أحداً من علماء المذاهب الحقة فى دار الهجرة، وطردوا العلماء الذين فى داخل المدينة واحدا تلو آخر؛ وبهذا أصبحت المدينة المنورة تحت أيدى طائفة الرافضة وخلع كل واحد منهم برقع الحياء والأدب وخرجوا جميعًا من دائرة الشرع المنجية، وابتدعوا بدعًا كثيرة متعددة وارتكبوا مساوئ تستدعى غضب الله، وهكذا كانوا سببًا فى احتراق مسجد السعادة، حتى إنهم رأوا بعض الأبيات كتبت على جدران المسجد الباقية دون الاحتراق من قبل الرحمن وأخبروا ذلك وكانت الأبيات المشهودة تبين إساءات الطائفة المذكورة وقد سطرت أيضًا فى الصورة من الوجهة الأولى، ولما استمرت وقاحة هذه الطائفة بعد تجديد مسجد السعادة أيضًا قويت إرادة أحد ملوك «نصير» الشراكسة فعين مفتيًا لموحدى المذهب الحق فى المدينة المنورة، وهكذا أرسل إلى طيبة الطيبة المفتى «شاهى» من أفاضل الفقهاء، ولما وصل المفتى المرسل من «نصير» إلى المدينة رأى أن أفراد المذاهب الحقة لا حكم لهم فى المدينة المذكورة لأجل ذلك فضل أن يؤدى مهمته فى مسجد ينسب إلى أبى بكر الصديق وقد أصبح مسجد السعادة تحت سيطرة غلاة الملاحدة وأخذ يصلى هناك ليلاً ونهاراً يعظ وينصح الناس فى خفاء وعزلة، وقد ظهر فى أثناء ذلك كثير من الموحدين الذين احترقت أكبادهم بنار الغيرة على الإسلام، وبذل المفتى جهده للتغلب على طائفة الملاحدة واستطاع بتصرفه الحكيم أن يدخل فى المسجد الحرام مع جم غفير ممن التفوا حوله من أتباعه وأخذ يعظ هناك وينصح وبهذه الطريقة الأصيلة استطاع أن يزيد عدد أتباع جماعات المذهب الحق يومًا بعد يوم وبهذا ظهرت علامة إمكانية التغلب على الملاحدة.

ولما رأت الطائفة المذكورة ازدياد أتباع المذهب الحق أخذت تتبع المفتى حيثما يذهب وتؤذيه فى جسمه وترجمه بحجارة الجور والإهانة حيثما يعظ وينصح من المساجد، إلا أن المفتى قد فتح صدره بالصبر لتحمل اعتراضات الملاحدة وزاد من عدد جماعته يومًا بعد يوم وبهذه الطريقة استطاع أن يعظ ويخطب أحيانًا حتى فى مسجد السعادة إلا أن جور ملاحدة الإمامية وأذاهم زاد قدر سعيه وجهده إذ أخذوا يرجمونه حينما يخطب فى المسجد حتى وهو يستأذن النبى ﷺ واقفًا أمام قبره وتعرض إلى غير ذلك من الأذى والتعب حتى أصبح يخاف على نفسه فقلت جرأته ـ وفق عادات البشر ـ وأراد أن يحصر وظيفته ـ الإمامة والخطابة ـ فى المسجد الذى ينسب لاسم الصديق الأكبر ـ رضى الله عنه ـ ومع هذا لم يتركوه على راحته حتى فى مسجد أبى بكر ولم يستطع أن يؤدى مهمته مستريحًا.

وقد تأثر أفراد سادات المذاهب الحقة من هذا الوضع وثقل عليهم، لذا قرروا فى مجلس عقدوه لبحث هذا الموضوع أن يخطب المفتى فى مسجد السعادة فإذا ما التزمت الطائفة المذكورة طريقة الإساءة والأذى والتسلط كان له أن يقاومهم بالسلاح وقد كثر عددهم وعلى هذا عادوا يومًا لأداء الصلاة فى مسجد السعادة، وقد اتحد مردة دائرة الرفض والإلحاد على أن يؤذوا ويسيئوا للخطيب فى داخل جماعته إلا أنهم جبنوا عن ذلك لما وصلهم من اتفاق أهل المدينة على المقاومة وأنهم كلهم متسلحون وعلى هذا لم يستطيعوا أن يتسلطوا على الخطيب بالرجم بل أطالوا ألسنتهم وأظهروا خبثهم بهذا الشكل.

وأخذ المفتى بعد هذه الواقعة يكثر من خطبه ومواعظه فى مسجد السعادة. إلا أن هذا العمل أثار غيظ علماء الطائفة المذكورة وغضبهم لذا فكر عقلاء الأهالى أن يحموا شخص المفتى ذو المحاسن من سهام إهانة الأشقياء وعن سوء قصد الملاحدة وقرروا أن يسير أمام الخطيب المفتى حينما يقوم من مكانه الخاص ويتجه إلى منبر السعادة حارسًا وشخصًا آخر أطلقوا عليه مؤذن المنبر، وفى الواقع إن هذا القرار كان صائبًا ومناسبًا لوقته.

وبناء على ما عرف ـ فى الصورة العاشرة من الوجهة الثالثة ـ أن الأمور سارت على ذلك المنوال فترة ما إلا أن الأهالى تغلبوا على جماعة الملاحدة المكروهة وأخرجوهم كافة من بلدة المدينة المنورة المباركة إلا أن الأهالى قد أبقوا خدمة مؤذن المنبر لسبب ما، ومن ذلك الوقت أصبح من العادة أن يسير أمام خطباء الحرمين مؤذن منبر فى أيام الجمع والأعياد، والآن يوجد مؤذن منبر أمام الخطباء الذين يتجهون لإلقاء الخطبة رعاية لهذا النظام سواء أكان فى المدينة المنورة أو مكة المكرمة وفى بعض البلاد العربية.

ولا ينكر فوائد هذا النظام الشامل للمحاسن فإن كان مثل هذا النظام فى باب السعادة لما أصيب خطيب جامع الوالدة فى أقسراى بجرح فى أثناء خطبته.

مولد النبى ﷺ يحيى أهالى المدينة ليالى المولد الشريف فى داخل المسجد الشريف ويجتمعون فى حلقات قرب الصباح أمام «باب النساء» وبعد أن يحضروا كرسيًا إلى الساحة الرملية لحرم السعادة، يستمعون إلى المولد الشريف من قبل خمسة أشخاص ذوى أصوات رخيمة والشيخ الخطيب ويشربون الشراب الذى يوزع عادة ويعودون إلى منازلهم.

ويشرع فى قراءة القصيدة المذكورة مع طلوع شمس اليوم الثانى عشر من كل سنة وإن كان قُرَّاء المولد من أئمة مسجد السعادة إلا أن لهم وظائف أخرى، وقارئ المولد الأول خاص بقراءة منقبة مولد السعادة وإنه يصعد فوق كرسى موضوع فى ساحة الحرم الشريف الرملية ويقرأ حديثًا ثم يدعو لسلطان الزمان وينزل، ثم يصعد الثانى ويقرأ ولادة النبى ﷺ الباهرة، ويقرأ الثالث الرضاع، والرابع يقرأ جزءًا خاصًا بالهجرة السنية، والخامس يدعو، وهكذا يؤدى كل واحد منهم وظيفته.

فتح المحال فى يوم مولد النبى للبيع والشراء، والانشغال بأشياء أخرى ممنوع قطعيًا بين أهل المدينة المنورة، يلبس فى ذلك اليوم الفيروزى الكبير والصغير الغنى والفقير كلهم ملابس فاخرة ويحتفلون بالعيد ويهنئ بعضهم بعضًا قائلين

حينما يتقابلون إن هذا اليوم السعيد اليوم الذى ولد فيه سيد الكائنات إن أجسام الكائنات التى كانت ميتة تقريبًا تجددت حياتها، المواسم المقدمة الأخرى خلقت لحرمة هذا اليوم، وقد نزل القرآن الكريم المبين لأجل هذا النبى المختار هذا اليوم يوم العيد الأكبر، هيا نظهر أقصى ما نستطيع من الفرح والسرور ونعلن هذا اليوم بإطلاق المدافع من القلاع وتفجير حشو البارود.

زيارة مشهد حمزة: ولما كان من عادة سكان البلاد الحجازية زيارة ضريح سيدنا حمزة بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ فى الليلة الثانية عشرة من رجب الفرد من كل سنة، فيذهب أهالى المدينة الطاهرة لزيارة مشهد سيدنا حمزة فى الليلة الثانية عشرة من شهر رجب وبعد الزيارة ينتشرون فى الخيم التى نصبت بجوار مرقد الشهيد المشار إليه ويحتفلون إلى الصباح وهم يطلقون حشو البارود.

ويخرجون فى الثالث والعشرين من رجب لاستقبال قافلة الزوار الذين يطلق عليهم «الرجبية» إلى خارج المدينة، وهؤلاء يفدون من الأطراف والأكناف قاصدين الزيارة، وبما أن هؤلاء الزوار يأتون إلى دار الهجرة راكبين الهِجَانَ قد يطلق عليهم «ركاب» أيضًا.

وتتكون طائفة الرجبية من الزوار الذين يأتون من اليمن ومكة والطائف وأهالى البلاد العربية وخاصة من البلاد والقرى القريبة المجاورة لدار الهجرة، وكل هؤلاء يأتون راكبين الهجان ومعهم أولادهم وعيالهم وكل قبيلة قد رفعت عَلَمَهَا وجلبوا رئيس قبيلتهم أمامهم ويدخلون بالشوق والإخلاص داخل حرم السعادة وينالون شرف مسح وجوههم على عتبة مرتبة العرش النبوى ويتلون النعوت الشريفة والصلوات الشريفة ويبكون متأثرين بما يحدث هذا الموقف من أثر شديد فى نفوسهم.

عندما يدخل زوار الرجبية فى حرم السعادة يبكون قليلاً إذ ترق قلوبهم، يسفحون الدموع الدامية إلى حَدّ أن من يرونهم تذوب قلوبهم كالملح وإن كانت فى قساوة الحجر الأسود، إنهم يفدون إلى المدينة المنورة ويقتحمونها مزدحمين

حتى تكاد المدينة طيبة الشهيرة تمتلئ رحباتها يقيمون فى خشوع وخضوع ثلاثة أيام بلياليهن أمام قبر النبى ﷺ وينشدون القصائد والمدائح دون توقف وهى قصائد فى مدح النبى ﷺ ذات أثر بالغ فى النفوس وأناشيد دينية:

مـرحبًا بـك يـا محمـد مـرحبًا مـرحبًا مـرحبًا

إلى آخره.

وينتحبون بشدة من أثر مهابة المجلس الذى يعقدونه فى داخل حرم مسجد السعادة إذ يقف من يشهده شعر جسمه من غلبة المحبة المصطفوية عليه ويسفح من عيونه دموع الحيرة وهو صامت ساكن.

واليوم الرابع لورود الطائفة المذكورة تحل ليلة المعراج وبعد أداء صلاة العصر يوضع كرسى مزين فى ساحة باب الرحمة فيجلس عليه شخص رخيم الصوت جميله ويأخذ الشخص فى تلاوة منظومة «المعراجية» بصوت حزين ذات تأثير ويلقى فى قلوب السامعين نار الوجد والمحبة ويغادر الكرسى.

ويجتمع بمنطقة المعراج المبارك كافة أفراد الزوار من الرجبية وأعيان وأشراف البلدة فيمتلئ مسجد السعادة لآخره من الداخل والخارج حتى يكاد يتحول إلى ساحة عرفات ذات الفيوضات ويهتز كل ركن منه بصياح ونحيب الموحدين حتى غروب الشمس.

ولما كان ينتظر وقوع بعض الفوضى والفساد نتيجة لهذا الزحام الشديد قد وضع بعض العساكر ورجال الشرطة حتى يحولوا دون حدوث ذلك وتتشكل هذه الجماعة فى الطرف الغربى من حديقة الرسول وقارئها شخص واحد منفرد. وسواء أكان فى الاحتفالات بالمعراج أو المولد الشريف تنصب خيمة فى خارج مسجد السعادة حيث تجهز المشروعات ويسقى الجماعات الذين فى داخل المسجد بأوان خاصة بالمياه. وتظل هذه الخيمة فى مكانها حتى تتفرق الجماعة تمامًا.

ومن العادات القديمة فى هذين الاحتفالين إرسال شراب حلو إلى منازل ألفين من الموظفين والأهالى ففى الوقت الذى ستزال فيه الخيمة ترسل إلى دائرة

المشيخة ودائرة نائب الحرم وإلى منازل الأغوات والأشخاص الآخرين وإلى العساكر السلطانية وإلى موظفى الحكومة وإلى أعيان البلاد وسادتهم إناءين أو ثلاثة أوان من الشراب وتتحمل كل هذه النفقات خزانة المديرية.

وبما أن وجود زوار آثار السعادة المصطفوية فى ليلة المعراج فى داخل المسجد النبوى من النظم المرعية فطائفة الرجبية يحتفلون فى داخل المسجد توأم الجنة ويزعجون أهالى المدينة بصياحهم وأنينهم حتى الصباح وبعد أن يصلوا صلاة الفجر مقتدين بإمام المذهب الشافعى وبعد أن يمر نصف ساعة من شروق الشمس يمتطون هجانهم ويعودون إلى بلادهم وبعد الوصول يقومون بإجراء مراسم التهنئة فيما بينهم.

ومن العادات القديمة الجارية بين الأهالى توديع طائفة الرجبية وتشييعهم ففى اليوم الذى ستغادر فيه الطائفة المذكورة يخرج عامة الأهالى إلى خارج القلعة ويعودون مبتهلين بالهم والبكاء وقد تأثروا بنياح المفارقين، وصياحهم، ويطلق بين العرب لهذه الزيارة «حج النبى».